سورة الكهف

هى مكية كلها فى المشهور واختاره جمع من العلماء ، وعدة آيها مائة وإحدى عشرة .

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن سورة الإسراء افتتحت بالتسبيح ، وهذه بالتحميد ، وهما مقترنان فى سائر الكلام فى نحو : « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » ونحو سبحان الله وبحمده .

(٢) تشابه ختام السالفة وافتتاح هذه ، فإنّ كلا منهما حمد .

(٣) إنه ذكر فى السابقة قوله : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » والخطاب فيها لليهود ، وذكر هنا قصة موسى نبىّ بنى إسرائيل مع الخضر عليهما السلام وهى تدل على كثرة معلومات الله التى لا تحصى ، فكانت كالدليل على ما تقدم .

(٤) إنه جاء فى السورة السابقة : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً » ثم فصل ذلك هنا بقوله : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » إلى قوله : « وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ

عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) .

شرح المفردات

العوج : (بالكسر والفتح) : الانحراف والميل عن الاستقامة ، فلا خلل فى لفظه ولا فى معناه ، قيما : أى معتدلا لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشقّ على العباد ، ولا تفريط فيه بإهمال ما تمس الحاجة إليه ، والبأس : العذاب الشديد فى الآخرة ، من لدنه : أى من عنده ، كبرت : (بضم الباء) كلمة : أى ما أعظمها مقالة قيلت ، وهذا أسلوب فى الكلام يدل على التعجب والاستغراب مما حدث من قول أو فعل ، باخع : أى قاتل (منتحر) قاله ابن عباس وأنشد قول لبيد :

لعلك يوما إن فقدت مزارها ... على بُعْده يوما لنفسك باخع

على آثارهم : أى من بعدهم أى من بعد توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه ، والحديث : هو القرآن ، والأسف : المبالغة فى الحزن والغضب ، وصعيدا : أى ترابا ، وجرزا : أى لا نبات فيه .

الإيضاح

(الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما) حمد الله نفسه على إنزاله كتابه العزيز إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه أعظم نعمة أنزلها على أهل الأرض ، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، وجعله كتابا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، بل يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى أنزل الكتاب على عبده محمد صلى الله عليه وسلم

مستقيما لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، بل بعضه يصدق بعضا ، و بعضه يشهد لبعض ، ولا اعوجاج فيه ولا ميل عن الحق .

(لينذر بأسا شديدا من لدنه) أى ليخوف الذين كفروا به عذابا شديدا صادرا من عنده أى نكالا فى الدنيا ونار جهنم فى الآخرة .

(ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا . ماكثين فيه أبدا) أى و يبشر المصدقين الله ورسوله الذين يمتثلون أوامره ونواهيه ــ بأن لهم ثوابا جزيلا منه على إيمانهم به وعملهم الصالح فى الدنيا ، وذلك الثواب الجزيل هو الجنة التى وعدها الله المتقين خالدين فيها أبدا لاينتقلون منها ولا ينقلون .

(و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) أى وليحذّر من بين هؤلاء الكفار من قالوا هذه المقالة الشنعاء ــ إن الله اتخذ ولدا ، وهؤلاء ثلاث طوائف .

(١) المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله .

(٢) اليهود القائلون عزير ابن الله .

(٣) النصارى القائلون المسيح ابن الله .

وإنما خص هؤلاء مع دخولهم فى الإنذار السابق لفظاعة حالهم ، وشناعة كفرهم وضلالهم .

(ما لهم به من علم) أى ليس لهم باتخاذ الولد برهان ، بل هو قول لم يصدر عن علم يؤيده ، ولا عقل يظاهره .

(ولا لآبائهم) أى وكذلك ليس لآبائهم الذين قالوا مثل هذه المقالة وهم القدوة لهم ــ به علم .

(كبرت كلمة تخرج من أفواههم) أى عظمت مقالتهم هذه فى الكفر ، وليتهم اكتفوا بخطورها بالبال وترددها فى الصدور ، بل تلفظوا بها على مرأى من الناس ومسمع ، وكثير مما يوسوس به الشيطان وتحدث به النفس لا يتلفظ به ،

بل يكتفى بما يعتقده القلب ، فكيف ساغ لهم أن يجرءوا على التلفظ بهذا المنكر الذى لامستند له من عقل ولا نقل .

ثم أكد هذا الإنكار وبين أنه كما لاعلم لهم ولآبائهم به - لاعلم لأحد به ، لأنه لاوجود له وما هو إلا محض اختلاق بقوله :

(إن يقولون إلا كذبا) أى ما يقولون إلا قولا لاحقيقة له بحال .

(فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) لعل هنا للاستفهام الإنكارى المتضمن معنى النهى - أى لا تبخع نفسك من بعد توليهم عن الإيمان وإعراضهم عنه أسفا وحسرة عليهم .

أى إنك قد اشتد وجدك عليهم وبلغت حالا من الأسى والحسرة صرت فيها أشبه بحال من يحدث نفسه أن يبخعها أسى وحسرة عليهم ، وما كان من حقك أن تفعل ذلك ، إن عليك إلا البلاغ ، وليس عليك الهداية « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاء » .

وقد جاء مثل هذا النهى فى آيات كثيرة كقوله « لَعَلَّكَ بَاخِـعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَـكُونُوا مُؤْمِنِينَ » وقوله « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » وقوله « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْـكُرُونَ » .

وخلاصة ذلك — أبلغهم رسالة ربك ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم أسى وحسرة ، فإنما أنت منذر ولست عليهم بمسيطر ، إن عليك إلا البلاغ .

ثم ذكر سبحانه سبب إرشاده إلى الإعراض عنهم بغير مايقدر عليه من التبليغ بالبشارة والنذارة ، وهو أنه تعالى جعل ما على الأرض زينة لها ليختبر المحسن والمسىء ويجازى كلا بما يستحق فقال :

(إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) أى إنا جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات ومعادن زينة لها ولأهلها ، لنختبر حالهم فى فهم

مقاصد تلك الزينة والاستدلال بها على وجود خالقها والإخبات إليه والطاعة له فيما أمر به والبعد عما نهى عنه ، فتقوم عليهم الحجة ، فمن اعتبر بتلك الزينة وفهم حكمتها حاز المثوبة ، ومن اجترأ على مخالفة أمره ، ولم يفهم أسرارها ومقاصدها استحق العقوبة .

وخلاصة ذلك — إنا جعلنا ما على الأرض من الزينة لنعاملهم معاملة من يختبرهم ، فنجازى المحسنين بالثواب والمسيئين بالعقاب ، و يمتاز أفراد الطبقتين بعضهم عن بعض على حسب امتياز درجات أعمالهم .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الدنيا نضرة حلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون » ، وقال : « إن أخوف ماأخاف عليكم مايخرج الله لكم من زهرة الدنيا ، قيل وما زهرة الدنيا ؟ قال بركات الأرض » ، وروى البخارى أن عمر كان يقول اللهم إنا لانستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا ، اللهم إنى أسألك أن تنفقه فى حقه .

(وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) أى إن الأرض وما عليها بائد فانٍ ، وإن المرجع إلى الله ، فلا تأس ولا تحزن لما تسمع وترى ، ونحو الآية قوله « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » وقوله « فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا » .

و إجمال المعنى — إن ما على الأرض سيصير ترابا ساذجا بعد ما كان يتعجب من بهجته النظارة ، وتسر برؤيته العيون ، فلا تحزن لما عاينت من تكذيب هؤلاء لما أنزل عليك من الكتاب ، فإنا جعلنا ما على الأرض من مختلف الأشياء زينة لها لنختبر أعمال أهلها ، فنجازيهم على حسب ما هم له أهل ، و إنا لمفنون ذلك بعد حين .

وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وكأنه قيل : لا تحزن فإنا ننتقم لك منهم .

تلخيص لقصة أهل الكهف كما أثر عن العرب

روى أن النصارى عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام ، وأكرهوا الناس على عبادتها ، وأصدر (الملك دقيانوس) الأوامر المشددة فى ذلك ومعاقبة من يخالفه ، وأراد أن يلزم فتية من أشراف قومه عبادتها وتوعدهم بالقتل ، فأبوا إلا الثبات على دينهم ، فنزع ثيابهم وحليهم ، ولكنه رحم شبابهم فأمهلهم لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، وهكذا ذهب الملك إلى مدن أخرى ليحث أهلها على عبادتها ، وإلا قتلوا .

أما الفتية فإنهم انطلقوا إلى كهف قريب من مدينتهم (أفسوس أوطرسوس) فى جبل يدعى (نيخايوس) وأخذوا يعبدون الله فيه حتى إذا هجم عليهم دقيانوس وقتلهم ماتوا طائعين ، وقد كانوا سبعة ، فلما مروا فى الطريق إلى الكهف تبعهم راع ومعه كلبه ، فجلسوا هناك يعبدون الله ، وكان من بينهم امرؤ يدعى (تمليخا) يبتاع لهم طعامهم وشرابهم ويبلغهم أخبار دقيانوس الذى لا يزال مجدّا فى طلبهم ، حتى إذا عاد من مطافه ووصل إلى مدينتهم بحث عن هؤلاء العُبّاد والنساك ليذبحهم أو يسجدوا للأصنام ، فسمع بذلك تمليخا بينما كان يشترى لهم الطعام خفية فأخبرهم فبكوا ، ثم ضرب الله على آذانهم فناموا ، وتذكرهم دقيانوس ، فهدد آباءهم إن لم يحضروهم فدلوه عليهم وقالوا إنهم فى الكهف ، فتوجه إليهم وسدد عليهم ليموتوا هناك وينتهى الأمر على ذلك .

وقد كان فى حاشية الملك رجلان يكتمان إيمانهما وهما بيدروس ، وروناس ، فكتبا قصة هؤلاء الفتية سرا فى لوحين من حجر وجعلاهما فى تابوت من نحاس ، وجعلا التابوت فى البنيان ليكون ذلك عظة وذكرى لمن سيجىء من بعد .

ثم مضت قرون يتلو بعضها بعضا ، ولم يبق لدقيانوس ذكر ولا أثر .

وبعدئذ ملك البلاد ملك صالح يسمى بيدروس دام ملكه ٦٨ سنة ، وانقسم

الناس فى شأن البعث والقيامة فرقتين : فرقة مؤمنة به ؛ وأخرى كافرة ، فحزن الملك لذلك حزنا شديدا ، وضرع إلى الله أن يُرى الناس آية يرشدهم بها إلى أن الساعة آتية لاريب فيها ، وقد خطر إذ ذاك ببال راع يسمى (أولياس) أن يهدم باب الكهف ويبنى به حظيرة لغنمه ، فلما هدمه استيقظوا جميعا فجلسوا مستبشرين ، وقاموا يصلون ، ثم قال بعضهم لبعض : كم لبثتم نياما ؟ قال بعضهم : لبثنا يوما أو بعض يوم ، وقال آخرون ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم (الورِق الفضة) هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاما وليحضر لنا جانبا منه ، فذهب تمليخا كما اعتاد من قبل ، ليشترى لهم الطعام وهو متلطف فى السؤال مختف حذرا من دقيانوس .

وبينما هو ماش سمع اسم المسيح ينادى به فى كل مكان ، فحدث نفسه وقال : عجبا لم يذبح دقيانوس هؤلا المؤمنين ؟ وبقى حائرا دهشا وقال : ربما أكون فى حلم أو لعل هذه ليست مدينتنا ، فسأل رجلا ما اسم هذه المدينة ، قال (أفسوس) وفى آخر مطافه تقدم إلى رجل فأعطاه ورِقا ليشترى به طعامه فدهش الرجل من نوع هذا النقد الذى لم يره من قبل ، وأخذ يقلبه ويعطيه إلى جيرته ، وهم يعجبون منه ويقولون له : أهذا من كنز عثرت عليه ، فإن هذه الدراهم من عهد دقيانوس ، وقد مضت عليه حقبة طويلة ثم أخذوه وقادوه إلى حاكمى المدينة فظن فى بادئ الأمر أنهم ساقوه إلى دقيانوس ، ولكن لما عرف أنه لم يؤت به إليه زال عنه الكرب وجفت مدامعه ، ثم سأله حاكما المدينة وهما أريوس وطنطيوس: أين الكنز الذى وجدت يا فتى ، وبعد حوار بينه وبينهما ذكر لهما خبر الفتية ودقيانوس وأن حديثهما كان أمس؛ وإن كان لديكما ريب من أمرى فهاهو ذا الكهف فاذهبا معى لتريا صدق ما أقول ، فسارا معه حتى وصلا إلى باب الكهف ، وتقدمهما تمليخا فأخبرهما بالحديث كله ، فداخلهما العجب حين علما أنهم ناموا تسعا وثلاثمائة سنة ، وأنهم أوقظوا ليكونوا آية للناس .

ثم دخل أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم ، وبداخله لوحان مكتوب عليهما قصة هؤلاء الفتية ، وكيف هربوا من دقيانوس حرصا على عقيدتهم ودينهم ، فسدّ عليهم بالحجارة .

ولما رأى أريوس ومن معه هذا القصص خروا لله سجدا وأرسلوا بريدا إلى ملكهم أن عجِّلْ واحضر لترى آية الله فى أمر فتية بعثوا بعد أن ناموا ثلثمائة سنة .

ثم سار الملك ومعه ركب من حاشيته وأهل مدينته حتى أتوا مدينة أفسوس وكان يوما مشهودا ، وحين رأى الفتية خرّ ساجدا لله ثم اعتنقهم وبكى وهم لايزالون يسبحون ، ثم قال الفتية له : أيها الملك نستودعك الله ونعيذك من شر الإنس والجن ثم رجعوا إلى مضاجعهم وقبضت أرواحهم ، فأمر الملك أن يجعل كل منهم فى تابوت من ذهب ، وحين جن الليل ونام رآهم فى منامه يقولون له : اتركنا كما كنا فى الكهف ننام على التراب حتى يوم البعث ، فأمر الملك أن يوضعوا فى تابوت من ساج وألا يدخل عليهم أحد بعد ذلك ، وأن يبنى على باب الكهف مسجد يصلى فيه الناس ، وجعل لهم ذلك اليوم عيدا عظيما . ذلك هو القصص الذى جعله النصارى دليلا على البعث . أما القرآن الكريم فإنه يقول إن آياتى على البعث وإعادة الأرواح بعد الموت ليست مقصورة على هذا القصص وحده ، فآياتى عليه لا تعد ولا تحصى ، فاقرءوا صحائف هذا الوجود ولا تقصروا أمركم على صحائف أهل الكهف والرقيم ، واجعلوا أنظاركم تتجه إلى ما حواه الكون لا إلى ما كتب فى القصص والحكايات ، وإن كانت فيها الدلائل والآيات .

إجمال القرآن لقصص أهل الكهف

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا
(٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ

لنا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) .

شرح المفردات

أم: حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر، وهو بمعنى بل وهمزة الاستفهام أى بل أحسبت، والخطاب فى الظاهر للنبي عليه السلام، والمراد غيره كما سبق نظيره، والكهف: النقب المتسع فى الجبل، فإن لم يكن متسعا فهو غار، والرقيم لوح حجرى رقمت فيه أسماؤهم كالألواح الحجرية المصرية التى يذكر فيها تاريخ الحوادث وتراجم العظماء، أوى إلى المكان: اتخذه مأوى ومكانا له، والفتية واحدهم فتى وهو الشاب الحدث، وقد كانوا من أبناء أشراف الروم وعظمائهم لهم أطواق وأسورة من الذهب، وهيىء: أى يسر، والرشد (بفتحتين وضم فسكون) الهداية إلى الطريق الموصل للمطلوب، فضربنا على آذانهم أى ضربنا عليها حجابا يمنع السماع، كما يقال بنى على امرأته، يريدون بنى عليها قبة، والمراد أنمناهم نومة لا تنبههم الأصوات الموقظة، عددا: أى ذوات عدد والمراد التكثير، لأنّ القليل لا يحتاج إلى العد غالبا، بعثناهم: أى أيقظناهم وأثرناهم من نومهم، والحزبين: هما الحزب القائل لبثنا يوما أو بعض يوم، والحزب القائل ربكم أعلم بما لبثتم، وأحصى: أى أضبط لأوقات لبثهم، والأمد: مدة لها حد وغاية.

الإيضاح

(أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أى لا تحسب أن قصة أصحاب الكهف والرقيم المذكورة فى الكتب السالفة حين استمروا أحياء أمدا طويلا — عجبا بالإضافة إلى ما جعلناه على ظهر الأرض من الزينة؛ فليست هى بالعجب وحدها من بين آياتنا؛ بل زينة الأرض وعجائبها أبدع وأعجب من

قصة أصحاب الكهف ؛ فإذا وقف علماء الأديان الأخرى عند أمثالها دهشين حائرين ، فأنا أدعوك وأمتك إلى ما هو أعظم منها ؛ وهو النظر فى الكون وعجائبه من خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب إلى نحو أولئك من الآيات الدالة على قدرة الله وأنه يفعل ما يشاء لامعقب لحكمه.

أما القصص وغرائبها فلا تكفى للوصول إلى أبواب الخير والسعادة التى يطمح إليها الإنسان ويجعلها مُثُله العليا ليفوز بخيرى الدنيا والآخرة ، فابحث عما نقش فى صحائف الأكوان ، لافى صحائف الكهوف والغيران .

قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم .

(إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا) أى اذكر أيها الرسول حين أوى أولئك الفتية إلى الكهف هربا بدينهم من أن يفتنهم عباد الأصنام والأوثان ، وقالوا إذ ذاك : ربنا يسر لنا بما نبتغى من رضاك وطاعتك رشدا من أمرنا ، وسدادا إلى العمل الذى نحب ، وارزقنا المغفرة والأمن من الأعداء .

(فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا) أى فضربنا على آذانهم حجابا يمنعهم السماع وأنمناهم نوما لاينبههم فيه مختلف الأصوات فى الكهف سنين كثيرة معدودة .

(ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) أى ثم أيقظناهم من رقدتهم لنعلم أى الطائفتين المتنازعتين فى مدة لبثهم ، أضبط فى الإحصاء والعد لمدة هذا اللبث فى الكهف .

وخلاصة ذلك — إنا بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبر حالهم لنرى أيهم أحصى لما لبثوا أمدا ، فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ، ويتعرفوا ماصنع الله

بهم من حفظ أبدانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته تعالى وعلمه ، ويستبصروا به فى أمر البعث ، ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم ، وآية بينة لـكفارهم .

تفصيل ذلك القصص وبسطه

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّٰهِ كَذِبًا ؟ (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللّٰهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّٰهِ مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) .

شرح المفردات

النبأ : الخبر العظيم ، وبالحق : أى بالصدق ، والربط : الشد ، وربطت الدابة : شددتها بالرباط ، والمربط : الحبل ، وربط الله على قلبه ، أى قوى عزيمته ، قاموا :

أى وقفوا بين يدى ملكهم الجبار دقيانوس ، إلها : أى معبودا آخر لا استقلالا ولا اشتراكا ، اتخذوا من دونه آلهة : أى نحتوا أصناما وعبدوها ، والسلطان : الحجة والبيّن : الظاهر ، والاعتزال والتعزل : تجنب الشىء بالبدن أو بالقلب كما قال :

يا بيتَ عاتكةَ التى أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد مُوَكَّلُ

فأووا إلى الكهف : أى التجئوا إليه ، وينشر لكم : أى يبسط لكم ، والمرفق : ما يرتفق وينتفع به ، وتزاور : تتنحى ، وذات اليمين : أى جهة يمين الكهف ، وتقرضهم : أى تعدل عنهم، قال الكسائى : يقال : قرضت المكان: إذا عدلت عنه ولم تقربه ، فجوة : أى متسع ، والأيقاظ ، واحدهم يقظ (بضم القاف وكسرها) والرقود : واحدهم راقد ، أى نائم ، وباسط ذراعيه : أى مادّها ، والوصيد : فناء الكهف ، والرعب : الخوف يملأ الصدر .

الإيضاح

(نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أى نحن ننبئك نبأ هؤلاء الفتية الذين آووا إلى الكهف نبأ حقا لا محل للريبة فيه .

وفى هذا إيماء إلى أن نبأهم كان معروفا لدى العرب على وجه ليس بالصدق ، ويدل على ذلك قول أمية بن أبى الصلت :

وليس بها إلا الرقيمُ مجاورا وصيدهمو والقوم فى الكهف هُجَّدُ

ثم فصّل ذلك بقوله :

(إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) أى إنهم شباب آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى بالتثبيت على الإيمان والتوفيق للعمل الصالح والانقطاع إلى الله والزهد فى الدنيا .

وقد جرت العادة أن الفتيان أقبل للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين

قد عتوا وانغمسوا فى الأديان الباطلة ، ومن ثم كان أكثر الذين استجابوا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم شبّانا ، و بقى الشيوخ على دينهم ، ولم يُسلم منهم إلا القليل .

ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » وقوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » وقوله : « لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ » .

فى أى زمن كان قصص أهل الكهف ؟

رجح ابن كثير أن قصص أهل الكهف كان قبل مجىء النصرانية لا بعدها كما رواه كثير من المفسرين متبعين ما أثر عن العرب ، والدليل على ذلك أن أحبار اليهود كانوا يحفظون أخبارهم و يعنون بها فقد روى عن ابن عباس أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء الفتية ، وعن خبر ذى القرنين ، وعن الروح ، وفى هذا أعظم الأدلة على أن ذلك كان محفوظا عند أهل الكتاب وأنه مقدم على النصرانية .

(ور بطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ر بنا رب السموات والأرض) أى وألهمناهم قوة العزيمة وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتى عزفت نفوسهم عما كانوا عليه من خفض العيش والرغبة عنه ، وقالوا حين قاموا بين يدى الجبار دقيانوس إذ عاتبهم على تركهم عبادة الأصنام ـ ر بنا رب السموات والأرض ورب كل مخلوق .

ثم أردفوا تلك المقالة بالبراءة من إله غيره فقالوا :

(لن ندعو من دونه إلها) أى لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلهاً، لا على طريق الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك ، إذ لا رب غيره ولا معبود سواه .

وقد أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الألوهية والخلق ، و بالجملة الثانية إلى توحيد الربوبية والعبادة ، وعبدة الأصنام يقرون بتوحيد الأولى ، ولا يقرون بتوحيد

الثانية ، بدليل قوله . « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » وقوله سبحانه حكاية عنهم : « إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » وكانوا يقولون فى تلبيتهم فى الحج : لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

ثم عللوا عدم دعوتهم لغيره بقولهم :

(لقد قلنا إذاً شططا) أى إنا إذا دعونا غير الله لقد أبعدنا عن الحق ، وتجاوزنا الصواب .

وفى هذا إيماء إلى أنهم دُعوا لعبادة الأصنام وليموا على تركها .

ثم حكى سبحانه عن أهل الكهف مقالة بعضهم لبعض فقال :

(هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن) أى إن قومنا هؤلاء وإن كانوا أكبر منا سنّا وأكثر تجربة قد أشركوا مع الله غيره ، فهلا أتوا بحجة بينة على صدق ما يقولون ، كما أتينا على صدق ما ندعى بالأدلة الظاهرة ، وإنهم لأظلم الظالمين فيما فعلوا وفيما افتروا ، ومن ثم قال :

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟) أى لا أظلم ممن افترى على الله الكذب ونسب إليه الشريك ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

(وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا) أى وإذ فارقتموهم وخالفتموهم فى عبادتهم غير الله ، ففارقوهم بأبدانكم والجئوا إلى الكهف ، وأخلصوا لله العبادة فى مكان تتمكنون منها بلا رقيب ولا حسيب ، وإنكم إن فعلتم ذلك فالله تعالى يبسط لكم الخير من رحمته فى الدارين ، ويسهل لكم من أمر الفرار بدينكم والتوجه إليه فى عبادتكم ما ترتفقون وتنتفعون به .

وقد قالوا ذلك ثقة بفضل الله تعالى ورجاء منه لتوكلهم عليه وكمال إيمانهم ، أخرج الطبرانى وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبيا إلا وهو شاب ،

وقرأ : «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ » « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ» « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ » .

ثم بيّن سبحانه حالهم بعد أن أووا إلى الكهف فقال :

(وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه) أى إنك أيها المخاطب لو رأيت الكهف لرأيت الشمس حين طلوعها تميل عنه جهة اليمين ، ورأيتها حين الغروب تتركهم وتعدل عنهم جهة الشمال ، والحال أنهم فى وسطه ومتسعه ، فيصيبهم نسيم الهواء وبرده .

وخلاصة ذلك — إنهم طوال نهارهم لا تصيبهم الشمس فى طلوعها ولا فى غروبها إذ كان باب الكهف فى مقابلة بنات نعش ، فهو إلى الجهة الشمالية ، والشمس لا تسامت ذلك أبدا ، لأنها لا تصل إلى أبعد من خط السرطان ، وكل بلاد بعده إلى جهة الشمال تكون الشمس من ورائها لا أمامها فيكون الظل مائلا جهة الشمال طول السنة ، كما يعلم ذلك من علم الفلك .

وإيضاح ذلك أنه لو كان باب الكهف فى ناحية الشرق لما دخل إليه شىء منها حين الغروب ، ولو كان من ناحية الجنوب لما دخل منها شىء حين الطلوع ولا الغروب وما تزاور الفىء لا يمينا ولا شمالا ، ولو كان جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ولا تزال فيه إلى الغروب .

مكان الكهف

وللمفسرين فى تعيين مكان الكهف أقوال : فقيل هو قريب من إيلياء (بيت المقدس) ببلاد الشام ، وقال ابن إسحاق : عند نينوى ببلاد الموصل ، وقيل ببلاد الروم ، ولم يقم إلى الآن الدليل على شىء من ذلك ، ولو كان لنا فى معرفة ذلك فائدة دينية لأرشدنا الله إليه كما قال صلى الله عليه وسلم : « ما تركت شيئا يقربكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا وقد أعلمتكم به » .

(ذلك من آيات الله) أى إن هدايتهم إلى التوحيد ومخالفتهم قومهم وآباءهم وعدم الاكتراث بهم وبملكهم مع حداثتهم ، وإيواءهم إلى كهف تلك صفته بحيث تزاور الشمس عنهم طالعة ، وتقرضهم غاربة ، وإخبارك بقصصهم ـ كل ذلك من آيات الله الكثيرة فى الكون الدالة على كمال قدرته ، وعلى أن التوحيد هو الدين الحق ، وعلى أن الله يكرم أهله .

ثم بين أن هدايتهم إلى التوحيد كانت بعناية الله ولطفه فقال :

(من يهد الله فهو المهتد) أى من يوفقه الله للاهتداء بآياته وحججه إلى الحق كأصحاب الكهف ، فهو المهتدى الذى أصاب سبيل الحق ، وفاز بالحظ الأوفر فى الدارين .

وفى هذا إيماء إلى أن أصحاب الكهف أصابوا الصواب ووفقوا لتحقيق ما أملوا من نشر الرحمة عليهم وتهيئة المرفق .

(ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) أى ومن يضلله الله لسوء استعداده وصرف اختياره إلى غير سبل الهدى والرشاد ، فلن تجد له أبدا خليلا ولا حليفا يرشده لإصابة سبل الهداية ، ويخلصه من الضلال ، لأن التوفيق والخذلان بيد الله يوفق من يشاء من عباده ، ويخذل من يشاء .

وفى هذا تسلية لرسوله وإرشاد له إلى أنه لاينبغى له أن يحزن على إدبار قومه عنه وتكذيبهم إياه ، فإن الله لو شاء لهداهم وآمنوا .

(وتحسبهم أيقاظا وهم رقود) أى ولو رأيتهم لظننتهم فى حال يقظة لانفتاح أعينهم وهم نيام كأنهم ينظرون إلى من أمامهم ، ولما للنوم من الحال الخاصة به التى يستبينها الناظر بادئ ذى بدء كاسترخاء المفاصل والأعضاء ولا سيما العينان والوجه .

(ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) ونقلب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرة للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر ، كى ينال روح النسيم جميع أبدانهم ، ولايتأثر ما يلى الأرض منها بطول المكث .

(وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) أى وكلبهم ملق يديه على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين بفناء الكهف كما روى عن ابن عباس ، وقيل المراد بالوصيد الباب وأنشدوا :

بأرض فضاء لا يُسَدُّ وصيدها علىّ ومعروفى بها غير منكر

(لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) أى لو شاهدتهم فى رقدتهم التى رقدوها فى الكهف ، لأدبرت عنهم هاربا فارا منهم .

(ولملئت منهم رعبا) أى ولملئت نفسك حين اطلاعك عليهم خوفا وفزعا ، لأن الله قد ألبسهم هيبة ووقارا كى لا يصل إليهم واصل ، ولا تلمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتوقظهم من رقدتهم قدرته وسلطانه فى الحين الذى أراد أن يجعلهم فيه عبرة لمن شاء من خلقه ، وآية لمن أراد الاحتجاج عليهم من عباده ، وليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ

ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ، فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) .

شرح المفردات

بعثناهم: أي أيقظناهم ، لبثتم: أي أقمتم ، والورق: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ، وأزكى: أجود وأطيب ، وليتلطف: أي يتكلف اللطف فى المعاملة كى لاتقع خصومة تجر إلى معرفته ، ولايشعرنّ : أى لايفعلنّ مايؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم ، إن يظهروا عليكم: أى إن يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم ؛ وأصل العثور السقوط للوجه يقال عثر عثورا وعثارا : إذا سقط لوجهه ، ويقال فى المثل « من سلك الجَدَد أمن العثار » ، ثم استعمل فى الاطلاع على أمر من غير طلب له ، والساعة: يوم القيامة حين يبعث الله الخلائق جميعا للحساب والجزاء ، والتنازع التخاصم ، والذين غلبوا على أمرهم هم رؤساء البلد ، لأنهم هم الذين لهم الرأى فى مثل هذا ، والمسجد : معبد المؤمنين من تلك الأمة وكانوا نصارى على المشهور ، والرجم : القول بالظن ويقال لكل ما يخرص رجم فيه ومرجوم ومرجم كما قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرَجَّمِ

والغيب: ما غاب عن الإنسان ؛ فالمراد أن يرمى الإنسان ماغاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة ، كما يقال فلان يرمى بالكلام رميا : أى يتكلم من غير تدبر ، والمراد هنا القول بالظن والتخمين ، والمراء : المحاجة فيما فيه مرية وتردد ، والمراء الظاهر: مالا تعمق فيه بألا يكذبهم فى تعيين العدد ، بل يقول هذا التعيين لادليل عليه ، فيجب عدم الجزم به ، ولا تستفت : أى لاتطلب الفتيا منهم .

الإيضاح

(وكذلك بعثناهم) أى كما أرقدنا هؤلاء الفتية فى الكهف وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ، وثيابهم من العفن على مرّ الأيام بقدرتنا ـ بعثناهم من رقدتهم وأيقظناهم من نومهم ، لنعرّفهم عظيم سلطاننا ، وعجيب فعلنا فى خلقنا ، وليزدادوا بصيرة فى أمرهم الذى هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة ، وإخلاصهم العبادة لله الواحد القهار ، إذا تبينوا طول الزمان عليهم وهم بهيئتهم حين رقدوا .

(ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم ؟) أى ولتكون عاقبة أمرهم أن يسأل بعضهم بعضا ، فيقول قائل منهم لأصحابه كم لبثتم ؟ ذاك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم .

(قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) أى فأجابه الآخرون ، فقالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ظنا منهم أن ذلك كذلك كان .

وإيضاح هذا أنهم لم يتحققوا مقدار لبثهم ، فهم لا يدرون مقدار ذلك اللبث ، أيوم هو أو بعض يوم ، لأن لُوثة النوم وظواهره لم تذهب من بصرهم وبصيرتهم ، فلم ينظروا إلى الأمارات التى تدل على ذلك المقدار الذى يظن أنه قد كان .

وأكثر المفسرين على أن دخولهم فى الكهف كان فى أول النهار واستيقاظهم كان آخر النهار .

(قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) أى وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم ، بل الله هو الذى يعلمها ، وهذا من الأدب البارع فى الرد على الأولين بأحسن أسلوب وأجمل تعبير .

وحين علموا أن الأمر ملتبس عليهم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا :

(فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) أى فابعثوا بدراهمكم هذه إلى المدينة وهى طرسوس كما جزم بذلك فخر الدين الرازى .

وفى قولهم (هذه) إشارة إلى أن القائل كان قد أحضرها ليناولها بعض أصحابه ، وإلى أن التأهب لأسباب المعاش بحمل الدراهم ونحوها لمن خرج من منزله ، لا ينافى التوكل على الله كما جاء فى الحديث « اعقلها وتوكل » .

(فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه) أى فليبصر أى الأطعمة أجود وألذّ فليأتكم بمقدار منه .

(وليتلطف ولا يشعرنّ بكم أحدا) أى وليترفق فى دخول المدينة وفى شرائه وفى إيابه منها ، ولا يخبرنّ بمكانكم أحدا من أهلها .

ثم ذكروا تعليل الأمر والنهى السالفين بقولهم :

(إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم) أى إن الكفار إذا علموا بمكانكم ولم تفعلوا ما يريدون منكم ، بل ثبتم على إيمانكم ، إما أن يقتلوكم رميا بالحجارة ، وكان ذلك هو المتبع فى الأزمنة الغابرة فيمن يعلن خلاف ما عليه الجماهير فى الأمور الدينية والسياسية التى لها شأن فى الدولة ، وإما أن يعيدوكم إلى ملة آبائكم التى هم مستمسكون بها .

(ولن تفلحوا إذاً أبدا) أى وإن دخلتم فى ملتهم ولو بالإكراه والقسر لن تفوزوا بخير لا فى دنياكم ولا فى آخرتكم ، إذ ربما استدرجكم الشيطان إلى أن تستحسنوا ما ستعتنقونه من ذلك الدين الجديد ، وتستمرئوه فتستمروا عليه ، فيكون قد كتب عليكم الشقاء عند ربكم ، والخذلان الذى لا خذلان بعده .

(وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) أى وكما بعثناهم بعد طول رقدتهم كهيئتهم حين رقدوا ، ليتساءلوا بينهم فيزدادوا بصيرة بعظيم سلطانه تعالى ، ومعرفة حسن دفاع الله عن أوليائه ـ أعثرنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا فى شك من قدرة الله على إحياء الموتى ، وفى مرية من إنشاء أجسام خلقه كهيئتهم يوم قبضهم بعد البلى ، ليعلموا أن وعد الله حق ، ويوقنوا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، إذ لا حجة لمن أنكرها إلا الاستبعاد ،

ولكن وقوع ذلك الأمر العظيم وعلمهم به مما يخفف من غُلَوائهم ، ويكبح جماح إنكارهم ويردهم إلى رشدهم .

ذلك أن حال هؤلاء الفتية فى تلك الحقبة الطويلة ، وقد حبست عن التصرف نفوسهم ، وعطلت مشاعرهم وحواسهم ، وحفظت من التحلل والتفتت أبدانهم ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ، ثم رجعت بعدئذ تلك المشاعر والحواس إلى حالها ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وأرسلت إلى تدبير أبدانها ، فرأت الأمور كما كانت ، والأعوان هم الأعوان ، ولم تنكر شيئا عهدته فى مدينتها ، ولم تتذكر حبسها المدى الطويل عن التصرف فى شؤونها — وحال الذين يقومون من قبورهم بعد ما تعطلت مشاعرهم وحبست نفوسهم — من وادٍ واحد فى الغرابة ، ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند ، ووقوع الأول يزيل الارتياب فى إمكان وقوع الثانى ، ولا يبقى بعد ذلك شك فى أن وعد الله حق ، وأن الله سيبعث من فى القبور ، فيرد عليهم أرواحهم ، ويجازيهم جزاء وفاقا على حسب أعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

(إذ يتنازعون بينهم أمرهم) أى وكذلك أطلعنا عليهم بيدروس وقومه حين ينازع بعضهم بعضا فى أمر البعث ، فمن مقرٍّ به ، وجاحد له ، وقائل تبعث الأرواح دون الأجساد — ففرح الملك وفرحوا بآية الله على البعث ، وزال ما بينهم من الخلاف فى أمر القيامة ، وحمدوا الله إذ رأوا ما رأوا مما يثبتها ، ويزيل كل ريب فيها .

(فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجدا) أى إنهم انقسموا فى شأنهم فريقين ، فريق يقول : نسدّ عليهم باب الكهف ونذرهم حيث هم ، وفريق يقول : نبنى عليهم مسجدا يصلى فيه الناس ، وقد غلب هذا الفريق الفريق الأول فى الرأى .

وقوله (ربهم أعلم بهم) جملة معترضة من كلامه تعالى ردا للخائضين فى أمرهم

إما من أعثروا عليهم ، أو ممن كان فى عهده صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب فى بيان أنسابهم وأسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم .

وقد ذكر العلماء أن اتخاذ القبور مساجد منهى عنه أشد النهى حتى ذكر ابن حجر فى كتابه الزواجر أنه من الكبائر ، لما روى فى صحيح الأخبار من النهى عن ذلك ، روى أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله تعالى زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » وزاد مسلم «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وروى الشيخان والنسائى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لعن الله تعالى اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» .

وروى أحمد والشيخان والنسائى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق يوم القيامة » .

وروى أحمد والطبرانى : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد » .

إلى نحو ذلك من الآثار الصحيحة ، فليعتبر المسلمون اليوم بهذه الأخبار التى لامرية فى صحتها ، وليقلعوا عماهم عليه من اتخاذ المساجد فى أضرحة الأولياء والصالحين والتبرك بها ، والتمسح بأعتابها ، وليعلموا أن هذه وثنية مقنعة ، وعود إلى عبادة الأوثان والأصنام على صور مختلفة ، والعبرة بالجوهر واللب ، لا بالعرض الظاهر، فذلك إشراك بالله فى ربوبيته وعبادته ، وقد حاربه الدين أشد المحاربة ، ونعى على المشركين ما كانوا يفعلون .

اللهم ألهم المسلمين رشدهم ، وثبتهم فى أمر دينهم ، ولا تجعلهم يحذون حذو من قبلهم حذو القُذّة بالقُذّة ، وأرجعهم إلى مثل ما كان يفعله المسلمون فى الصدر الأول

وما بعده ، فرجاله هم الأسوة ، وقد صح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما وجد قبر دانيال فى عهده بالعراق أمر أن يسوى بالأرض ، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده وفيها شىء من الملاحم وغيرها من الأخبار.

ولما ذكر سبحانه القصة ونزاع المتخاصمين فيما بينهم - شرع يقص علينا ما دار فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم من الخلاف فى عدد أصحاب الكهف فقال :

(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) أى سيقول بعض الخائضين من أهل الكتاب ذلك ، فقد روى أن نصارى نجران تناظروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدد أهل الكهف ، فقالت الملكانية (أصحاب الملك) : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالت النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وروى هذا عن ابن عباس ، وهو الحق بدليل أنه تعالى حكم على القولين السابقين بأنهما رجم بالغيب ، فأرشد ذلك إلى أن الحال فى الأخير بخلافه ، وأنهم إنما قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس .

(قل ربى أعلم بعدتهم) فى هذا إرشاد لنا إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم ، فإن أطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا توقفنا ولم نجزم بشىء .

(ما يعلمهم إلا قليل) أى ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس ، روى قتادة عن ابن عباس أنه قال : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل ، كانوا سبعة سوى الكلب ، ولم يرد فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم شىء فى ذلك .

وفى هذا دلالة على أن المهم ليس هو معرفة العدد ، بل المهم الاعتبار بذلك القصص ، وبما يكون نافعا لعقولنا وتطهير أخلاقنا ورقينا فى حياتينا الدنيوية والأخروية .

وبعد أن ذكر سبحانه هذا القصص ، نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين : المراء فى أمرهم، والاستفتاء فى شأنهم فقال :

(فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) أى فلا تجادل فى شأن الفتية إلا جدلا سهلا لينا ، وقص عليهم ما جاء فى الكتاب الكريم دون تكذيب لهم فى تعيين العدد ، ولا تجهيل لهم فى الحديث ، إذ لا يترتب على ذلك كبير فائدة ، لأن المقصد من القصة هو العظة والاعتبار ، ومعرفة أن البعث حاصل لامحالة وهذا لا يتوقف على عدد معين إلى أن ذلك مما يخل بمكارم الأخلاق التى بعث لإتمامها .

ونحو الآية قوله : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

(ولا تستفت فيهم منهم أحدا) أى ولا تستفت النصارى فى شأنهم فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب من غير استناد إلى دليل قاطع ولا نص صريح ، وقد جاءك ربك بالحق الذى لا مرية فيه ، فهو الحاكم المقدم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال السالفة .

وفى الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شىء من العلم .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) .

المعنى الجملى

جاءت هاتان الآيتان إرشادا وتأديبا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، يعلمه بأنه إذا أراد أن يخبر عن شىء سيفعله فى مستأنف الأيام ، أن يقرن قوله بمشيئة علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما سيكون .

وجاءت معترضة أثناء القصة لما تضمنته من تعليم عباده تفويض الأمور كلها إليه ، وبيان أنه لا يحدث فى ملكه إلا ما يشاء .

روى أنهما نزلتا حين سألت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فقال عليه الصلاة والسلام غدا أخبركم ، ولم يستثن (لم يقل إن شاء الله) فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما ، فشق ذلك عليه وكذبته قريش .

الإيضاح

(ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) أى ولا تقولن أيها الرسول لشىء إنى سأفعل ذلك غدا إلا أن تقول : إن شاء الله ، ذاك أنه ربما مات المرء قبل مجىء الغد ، أو ربما عاقه عائق عن فعله ، فإذا لم يقل إن شاء الله صار كاذبا فى ذلك الوعد ونفر الناس منه .

(واذكر ربك إذا نسيت) أى واذكر مشيئة ربك إذا فرط منك نسيان ثم تذكرت ذلك ، وهذا أمر بالتدارك حين التذكر ، سواء أطال الفصل أم قصر .

(وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) أى وقل عسى أن يوفقنى ربى لشىء أقرب إرشادا للناس ، وأظهر حجة من نبأ أهل الكهف .

وقد حقق الله له ذلك ، فآتاه من الآيات ما هو أعظم من ذلك ، كقصص الأنبياء مع أممهم على توالى العصور ومر الأيام .

وخلاصة ذلك — اطمع من ربك أن يهديك لأقرب مما أرشدك إليه خيرا ومنفعة فى ضمن ما ألقى إليك من الأوامر والنواهى ، وقد استجاب الله دعاءه ، فهداه فيما أنزل عليه إلى ماهو خير منفعة ، وأجدى فائدة للمسلمين فى دنياهم وآخرتهم ، وآتاهم من الخير العميم ما جعلهم به خير أمة أخرجت للناس .

ثم بين سبحانه ما أجمل فى قوله : فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، وأكده بالآية بعدها فقال :

وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)

الإيضاح

(ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا) أى ولبثوا فى الكهف حين ضربنا على آذانهم ثلثمائة سنة على حساب أهل الكتاب الذين علموا قومك السؤال عن شأنهم ، وتسعا زائدة على حساب قومك الذين سألوك عن ذلك .

ولا شك أن فى هذا البيان معجزة لرسوله النبى الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يدرس الحساب ولا الهندسة ولا الفلك ، فمن أين له أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية ، وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يوما على السنة القمرية .

لا شك أنه قد أعلمه اللطيف الخبير بما أوحاه إليه ، وهداه لأقرب من هذا رشدا ، وهو الذى جعله يلفت الأنظار إلى علم ما على الأرض زينة لها كضوء الشمس والقمر على وجهها ، وما نتج عن ذلك الضوء من بهجة الأرض وزينتها ؛ فلولا اختلاف الفصول لم يكن للأرض زينة ، ولا اختلاف للفصول إلا بتقلب أحوال الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى ، فما من حيوان ولا نبات إلا أس حياته ضوء الشمس الذى أرسله الله إلى الأرض ، كما أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم ليهدينا إلى نور العلم ويقول لنا : إن النظر فيما على الأرض من زينة أقرب رشدا من قصص الأولين ، وحكايات الغابرين .

فكم فى العوالم المحيطة بكم من خوارق ، فإياكم أن تذروها ابتغاء ما يقع على أيدى أنبيائكم وأوليائكم . فإنى قد أرسلت الأنبياء ليرشدوكم إلى ملكى وما فى خلق

من عجائب ، وما الأنبياء والأولياء إلا بعض خلق «لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» .

ثم أكد أن المدة المضروبة على آذانهم هى هذه المدة فقال :

(قل الله أعلم بما لبثوا) أى قل الله أعلم منكم بهم وقد أخبر بمدة لبثهم فهو الحق الذى لايحوم حوله شك .

وفائدة تأخير بيانها الدلالة على أنهم تنازعوا فيها أيضا كما تنازعوا فى العدد ، وعلى أن هذا البيان من الغيب الذى أخبر الله به نبيه ليكون معجزة له ، وجاء قوله « قل الله أعلم بما لبثوا » تذييلا لسابقه ليكون محاكيا قوله فى حكاية عددهم « قل ربى أعلم بعدتهم » .

ثم أشار إلى اختصاصه بعلم ما لبثوا مبينا علمه فقال :

(له غيب السموات والأرض) أى ولله علم ما غاب فيهما ، وخفى من أحوال أهلهما ، لا يعزب عنه علم شىء منه ، فسلموا له علم ما لبثت الفتية فى الكهف ، وإذا علم الخفى فيهما فهو بعلم غيره أدرى .

ومن ذلك العلم الغائب على كثير من العقول حساب السنة الشمسية والقمرية ، فقد غيبه الله عن بعض الناس ، ولم يطلع عليه إلا العارفين بحساب الأفلاك ، ومن ثم يعجبون من أمر نبيهم ويعلمون أن هذا مبدأ زينة الأرض وزخرفها .

(أبصر به وأسمع) هذا أسلوب فى اللغة يدل على التعجب والمبالغة فى الأمر الذى تتحدث بشأنه ، أى ما أبصر الله تعالى بكل موجود ، وأسمعه بكل مسموع ، فهو لايخفى عليه شىء من ذلك ، وهذا أمر عظيم من شأنه أن يتعجب منه .

وقد ورد مثل هذا فى الحديث : «ما أحلمك عمن عصاك ، وأقربك ممن دعاك ، وأعطفك على من سألك » .

(ما لهم من دونه من ولى) أى ما لخلقه دون ربهم الذى خلقهم – ولىّ تدبير أمورهم وتصرفهم إلى ماهم فيه مصرّفون .

(ولا يشرك فى حكمه أحدا) أى إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ، تعالى الله وتقدست أسماؤه .

وَاتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) .

شرح المفردات

لا مبدل : أى لا مغير ، لكلماته أى لأحكامها فلا يستطيع أحد نسخ أحكام ما جاء فى كتابه ، ملتحدا : أى ملجأ تعدل إليه إذا ألمت بك ملمة ، واصبر نفسك : أى احبسها وثبتها ، بالغداة والعشى : أى فى طرفى النهار ، وخصهما بالذكر لأنهما محل الغفلة وفيهما يشتغل الناس بأمور دنياهم ، وجهه : أى رضاه وطاعته ، لأن من رضى

عن شخص يقبل عليه ، ومن غضب عليه يعرض عنه ، ولا تعد عيناك عنهم : أى لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا ؛ والمراد لاتحتقرهم وتصرف النظر عنهم لرثاثة منظرهم إلى غيرهم ، تريد زينة الحياة الدنيا : أى تطالب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الثراء ، أغفلنا قلبه : أى جعلناه غافلا ، فرطا : أى تفريطا وتضييعا لما يجب عليه أن يتبعه من أمر الدين ، وأعتدنا : أى أعددنا وهيأنا ، والسرادق : لفظ فارسى معرّب يراد به الفسطاط (الخيمة) شبه به ما يحيط بهم من لهب النار المنتشر منها فى سائر الجهات ، المهل : درديّ الزيت أو ما أذيب من المعادن كالرصاص والنحاس ، يشوى الوجوه : أى ينضجها إذا قدم ليشرب لشدة حره ، ومرتفقا : أى متكأً ؛ يقال بات فلان مرتفقا أى متكئا على مرفق يده ، وجنات عدن : أى جنات إقامة واستقرار ؛ يقال عدن بالمكان إذا أقام فيه واستقر ومنه المعدن لاستقرار الجواهر فيه ، والأساور : واحدها سوار ، والسندس : رقيق الديباج واحده سندسة وهو فارسى معرّب ، والاستبرق : ما غلظ منه وهو رومى معرب ، والأرائك واحدها أريكة ــ سرير عليه حجلة (أو ناموسية) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص أهل الكهف ودل اشتمال القرآن عليه على أنه وحى من علام الغيوب ــ أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه وتلاوته ، وألا يكترث بقول القائلين له ائت بقرآن غير هذا أو بدله .

الإيضاح

(واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا) أى واتل الكتاب الذى أوحى إليك ، والزم العمل به ، واتبع ما فيه من أمر ونهى ، وإن أحدا لايستطيع أن يغير ما فيه من وعيد لأهل معاصيه ، ومن

وعد لأهل طاعته ، فإن أنت لم تتبعه ولم تأتمّ به ، فذالك وعيد الله الذى أوعد به المخالفين حدوده ـ فلن تجد موئلا من دونه ، ولا ملجأ تلجأ إليه ، إذ قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه ، لا يقدر أحد على الهرب من أمر أراده به .

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) أى احبس نفسك وثبتها مع فقراء الصحابة كعمار بن ياسر وصهيب وبلال وابن مسعود وأضرابهم ممن يدعون ربهم بالغداة والعشى بالتسبيح وصالح الأعمال ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون عرضا من أعراض الدنيا ولا شيئا من لذاتها ونعيمها .

روى « أن عيينة بن حصن الفزارى أتى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من فقراء أصحابه ، فيهم سلمان الفارسى وعليه شَمْلَة قد عرق فيها ، وبيده خوص يشقه ثم ينسجه ، فقال له : أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها ، فإن أسلمنا أسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء ، فنحّهم حتى نتبعك ، أو اجعل لهم مجلسا ولنا مجلسا ، فنزلت الآية » .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة قالا : « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » .

ونحو الآية قوله : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » .

ومقال هؤلاء شبيه بمقالة قوم نوح : « أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ » .

ثم أمره سبحانه بمراقبة أحوالهم فقال :

(ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) أى لا تصرف بصرك ونفسك عنهم رغبة فى مجالسة الأغنياء لعلهم يؤمنون .

وخلاصة ذلك ـــ النهى عن احتقارهم وصرف النظر عنهم إلى غيرهم لسوء

حالهم وقبح بزّتهم ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت الآية : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معه .

ثم أكد هذا النهى بقوله :

(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) أى ولا تطع فى تنحية الفقراء عن مجلسك من جعلنا قلبه غافلا عن ذكر الله ، لسوء استعداده ، واتباع شهواته وإسرافه فى ذلك غاية الإسراف ، وتدسيته نفسه ، حتى ران الكفر والفسوق والعصيان على قلبه ، وتمادى فى اجتراح الآثام والأوزار .

وفى ذلك تنبيه إلى أن الباعث لهم على استدعاء الطرد غفلة قلوبهم عن جناب الله والعمل على ما يقرب منه ، وشغلهم بالأمور الحسية حتى خفى عليهم أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد وزخرف الحياة من اللباس والطعام والشرف .

وبعد أن نهى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يلتفت إلى قول أولئك الأغنياء الذين قالوا إن طردت أولئك الفقراء آمنا بك ـ أمره أن يقول لهم ولغيرهم على طريق التهديد والوعيد : هذا هو الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وقد أشار إلى ذلك بقوله :

(وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أى قل أيها الرسول لأولئك الذين أغفلنا قلوبهم عن الذكر ، واتبعوا أهواءهم : هذا الذى أوحى إلى هو الحق من عند ربكم ، وهو الذى يجب عليكم اتباعه والعمل به ، فمن شاء أن يؤمن به ويدخل فى غمار المؤمنين ، ولا يتعلل بما لا يصلح أن يكون معذرة له فليفعل ، ومن شاء أن يكفر به وينبذه وراء ظهره فأمره إلى الله ، ولست بطارد لأجل أهوائكم من كان للحق متبعا ، وبالله وبما أنزل علىّ مؤمنا .

وخلاصة ذلك — إننى فى غنى عن متابعتكم وإننى لا أبالى بكم ولا بإيمانكم ، وأمر ذلك إليكم ، وبيد الله التوفيق والخذلان والهوى والضلال ، وهو لا ينتفع بإيمان

المؤمنين ، ولا يضره كفر الكافرين كما قال : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » .

ولما هدد السامعين بأن يختاروا لأنفسهم ما يجدونه غدا عند الله ـ أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والمعاصى ، والوعد على الأعمال الصالحة ، فبدأ :

(إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها) أى إنا قد أعددنا لمن ظلم نفسه وأنف من قبول الحق ، ولم يؤمن بما جاء به الرسول ـ نارا يحيط بهم لهيبها المستعر من كل جانب كما يحيط السرادق بمن حل فيه ، فلا مخلص منه ولا ملجأ إلى غيره

(وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه) أى وإن يستغث هؤلاء الظالمون يوم القيامة وهم فى النار ، فيطلبوا الماء لشدة ماهم فيه من العطش لحر جهنم كما قال فى سورة الأعراف حكاية عنهم: « أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » يؤت لهم بماء غليظ كدردىّ الزيت ، وإذا قرب إليهم للشرب سقطت جلود وجوههم ونضجت من شدة حره .

روى أحمد والترمذى والبيهقى والحاكم عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « المهل : كَعَكَر الزيت ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه» ، وعن ابن عباس قال أسود كعكر الزيت .

(بئس الشراب وساءت مرتفقا) أى ما أقبح هذا الشراب الذى هو كالمهل ، فهو لا يطفئ غلة ، ولا يسكن حرارة الفؤاد ، بل يزيد فيها إلى أقصى غاية ، وما أسوأ هذه النار منزلا ومقيلا وموضعا للارتفاق كما قال فى الآية الأخرى : « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

ثم ثنى بذكر السعداء فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) أى إن الذين آمنوا بالحق الذى يوحى إليك ، وعملوا ما أمرهم به ربهم ، فالله لا يضيع أجرهم على ما أحسنوا من الأعمال ، ولا يظلمهم على ذلك نقيرا ولا قطميرا .

ثم بين ما أعد لهم من النعيم بقوله:

(١) (أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار) أى إنه لهم جنات يقيمون فيها تجرى من تحت غرفها الأنهار.

(٢) (يحلون فيها من أساور من ذهب) أى يلبسون فيها أساور من ذهب تكون حلية لهم، وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب، وجاء فى آية أخرى من فضة وفى أخرى من ذهب ولؤلؤ فيعلم من هذا أنهم يحلون بالأساور الثلاثة، فيكون فى يد الواحد منهم سوار من ذهب وآخر من فضة وآخر من لؤلؤ.

(٣) (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق) أى ويلبسون رقيق الحرير وغليظه مما نسج من سلوك الذهب، وهذا لباس المترفين فى الدنيا، ومنتهى ما يكون لأهل النعيم.

واختير اللون الأخضر، لأنه أرفق بالأبصار، ومن ثم جعله الله لون النبات والأشجار، وجعل لون السماء الزرقة، لأنه نافع لأبصار الحيوان أيضا، وقالوا: ثلاثة مذهبة للحزن: الماء والخضرة والوجه الحسن.

(٤) (متكئين فيها على الأرائك) أى يتكئون فيها على سرر مزدانة بالستور، وهذا دليل على منتهى الراحة والنعيم كما يكون ذلك فى الدنيا.

(نعم الثواب وحسنت مرتفقا) أى نعمت الجنة لهم جزاء وفاقا على جميل أعمالهم وحسنت منزلا ومقيلا.

ونحو الآية قوله: «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً. خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً».

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا

وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ
جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ
السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)
قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي
أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ،
إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠)
أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ
فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ،
وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) .

شرح المفردات

الجنة : البستان ، سميت بذلك لاجتنان أرضها واستتارها بظل الشجر ، وكل مادة (ج ن ن) تفيد الخفاء والاستتار كالجنين والجن والمجنون لاستتار عقله وجن الليل : أى أظلم إلى نحو ذلك ، أعناب : أى كروم منوعة ، وحففناهما بنخل : أى جعلنا النخل محيطا بهما مطبقا بحفافيهما : أى جانبيهما ، يقال حفه القوم : أى

طافوا به ، ومنه قوله : «حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ» وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله ، أكلها : أى ثمرها ، ولم تظلم : أى لم تنقص ، والنَّهَر لغة فى النهر : وهو مجرى الماء العذب ، ثمر : أى أنواع من المال يقال ثمّر فلان ماله وأثمره : إذا نماه. قال الحرث ابن كَلَدَة :

ولقد رأيت معاشرا قد أثمروا مالا وولدا

والصاحب : المصاحب لك ، يحاوره : أى يجادله ويراجعه الكلام بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله والبعث ، والمراد من النفر الخدم والحشم والأعوان ، أن تبيد : أى تفنى وتهلك ، قائمة : أى كائنة متحققة ، ومنقلبا : أى مرجعا وعاقبة ، سوّاك : أى عدلك وكملك إنسانا ، لكنا هو الله ، أصل التركيب لكن أنا هو الله ربى (دخله نقل وحذف) لولا: حرف يفيد الحث على الشىء والتوبيخ على تركه ، ماشاء الله: أى ماشاء الله كائن ، حسبانا من السماء: أى مطراعظيما يقلع زرعها وأشجارها والصعيد: وجه الأرض ، وزلقا : أى تصير بحيث تزلق عليها الرجل؛ والمراد أنها تصير ترابا أملس لا تثبت فيه قدم ، والغور : الغائر فى الأرض الغائص فيها ، طلبا : أى عملا وحركة لرده ، وأحيط بثمره : أى أهلكت أمواله ، يقال أحاط به العدو : إذا استولى عليه وغلبه ثم استعمل فى كل إهلاك ، ويقلب كفيه ، هذا أسلوب فى اللغة يفيد الندامة والحسرة ، فإن من تعظم حسرته يصفق بإحدى يديه على الأخرى متأسفا متلهفا ، خاوية : أى ساقطة ، يقال خوت الدار : تهدمت وخوّت وخويت خيّا وخُوِيًّا : خلت من أهلها ، والعروش : واحدها عرش وهى الأعمدة التى توضع عليها الكروم ، منتصرا : أى ممتنعا بقوة عن انتقام الله ، عقبا : أى عاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه بصبر نفسه مع فقراء المؤمنين ، وعدم طاعة أولئك الأغنياء من المشركين الذين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم طرد هؤلاء الصعاليك ، وأن

يعين لهم مجلسا وللسادة مجلسا آخر حتى لايؤذوهم بمناظرهم البشعة ، وروائحهم المستقذرة ، وحتى لايقال إن السادة ومواليهم يجتمعون فى صعيد واحد ، و يتحدثون و إياهم حديث الندّ للند ، وفى ذلك امتهان لكبريائهم وخفض من عزتهم - ففى على ذلك بمثل يستبين منه أن المال لاينبغى أن يكون موضع فخار ، لأنه ظل زائل، وأنه كثيرا ما يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا ، و إنما الذى يجب أن يكون أساس التفاخر ، وعمدة التفاضل ، هو طاعة الله وعبادته ، والعمل على ما يرضيه فى دار الكرامة حيث لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الإيضاح

(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا) أى واضرب أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى - مثلا هو مثل رجلين جعلنا لأحدهما بستانين من كروم العنب ، وأحطناهما بنخل ، وجعلنا وسط هذين البستانين زرعا .

وخلاصة ذلك — إن أرضه جمعت القوت والفواكه ، وهى متواصلة متشابكة، فلها منظر ورواء حسن ووضع أنيق يخلب الألب بجماله وبهجته إذا امتلأ منه البصر .

روى أن أخوين من بنى إسرائيل ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطراها فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا ، وأنفق المؤمن ما ورثه فى وجوه الخير وطاعة الله ، وآل أمرهما إلى ما قصه الله علينا فى كتابه .

وسواء أصحت الرواية أم لم تصح ، فإن ضرب المثل لايتوقف على صحتها .

وقد ضرب الله المثل ليبين حال الفريقين المؤمنين والكافرين ، من قِبَل أن الكفار مع تقلبهم فى النعيم قد عصوا ربهم ، وأن المؤمنين مع مكابدتهم للشدائد والبأساء قد أطاعوه .

(كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا) أى كلتا الجنتين أخرجت ثمرها

ولم تنقص منه شيئا فى سائر الأعوام على خلاف ما يعهد فى الكروم والأشجار من أنها تكثر غلتها أعواما وتقل أعواما أخرى .

(وفجرنا خلالهما نهرا) أى وشققنا وسط الجنتين نهرا كبيرا تتفرع منه عدة جداول ، ليدوم سقيهما ، ويزيد بهاؤهما وتكثر غلتهما .

(وكان له ثمر) أى وكان لصاحب الجنتين أموال أخرى غيرهما من ذهب وفضة ثمّرها بمـا ادخره من غلات الجنتين ومن تجارات أخرى .

وخلاصة ذلك — إنه سبحانه أنعم عليه بخيرات الدنيا صامتها وناطقها ، ثاغيها وراغيها ، وكان له مزارع يستخدم فيها أعوانه وخدمه ولا يستعصى عليه شىء من مسرات الدنيا ومباهجها ، ولذاتها ونعيمها .

وبعد أن تم له الأمر وقعد على سنام العز والكبرياء ، داخله الزهو والخيلاء .

(فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أى فقال لصاحبه المؤمن حين حاوره وراجعه الحديث ، مذكرا له بالإيمـان بالله والبعث والقيامة : أنا أكثر منك مالا كما ترى من جناتى وزروعى المختلفة ، وأعز عشيرة ورهطا تقوم بالذبّ عنى ودفع خصومتى ، وتنفر معى عند الحاجة إلى ذلك .

ثم زاد فخرا على صاحبه المسلم وأراه عِيانا ما يتمتع به من المناظر البهيجة فى تلك الجنان التى لاتفنى ، وذلك ما أخبر عنه سبحانه بقوله :

(ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة) أى ودخل هذا الذى جعلنا له جنتين من أعناب وأشجار ونخيل ، ومعه صاحبه ، هاتين الجنتين وطاف به فيهما مفاخرا وقال حين عاين ما فيهما من أشجار وثمـار وزروع وأنهار مطردة : ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبدا ولا تخرب — كما قال وهو شاك فى المعاد إلى الله والبعث والنشور : ما أظن أن يوم القيامة آت كما تقولون ، وقد كان فى كل ذلك ظالمـا لنفسه ، إذ وضع الشىء فى غير موضعه ،

فقد كان أليق به أن يكون شاكرا لتلك النعم ، متواضعا لربه ، لا أن يكون كافرا به ، منكرا لما جاء به الوحى وأقرته جميع الشرائع .

وخلاصة ذلك — إنه لحقه الخسار من وجهين .

(١) ظنه أن تلك الجنة لا تهلك ولا تبيد مدى الحياة .

(٢) ظنه أن يوم القيامة لن يكون .

ثم تمنى أمنية أخرى كان فى شك منها فقال :

(ولئن رددت إلى ربى لأجدنّ خيرا منها منقلبا) أى ولئن كان معاد ورجعة إلى الله ليكونن لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربى ، والذى جرأه على هذا الطمع وعلى تلك اليمين الفاجرة ـ اعتقاده أن الله إنما حباه بما حباه به فى الدنيا لما له من كرامة لديه ، ولما فيه من مزايا استحق بها أن ينال ما نال .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن الكافر «وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى» .

وخلاصة ذلك — إنه لم يعطنى الجنة فى الدنيا إلا ليعطينى فى الآخرة أفضل منها ، قال ذلك طمعا وتمنيا على الله وادعاء للكرامة عنده .

ثم ذكر سبحانه جواب المؤمن له فقال :

(قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟) أى قال له صاحبه المؤمن واعظا وزاجرا عما هو فيه من الكفر : أكفرت بالذى خلقك من التراب ؟ إذ غذاء والديك من النبات والحيوان ، وغذاء النبات من التراب والماء ، وغذاء الحيوان من النبات ، ثم يصير هذا الغذاء دما يتحول بعضه إلى نطفة يكون منها خلقك بشرا سويا على أتم حال وأحكمه على حسب ما تقتضيه الحكمة ـ فهذا الذى خلقك على هذه الحال قادر على أن يخلقك مرة أخرى .

والخلاصة — كيف تجحدون ربكم ، ودلالةُ خلقكم على وجوده ظاهرة جلية

يعلمها كل أحد من نفسه ، فما من أحد إلا يعلم أنه كان معدوما ثم وجد ، وليس وجوده من نفسه ولا مستندا إلى شىء من المخلوقات ، لأنها مثله ، وقد أشار إلى ذلك بقوله :

(لـكنا هو الله ربى) أى لـكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف بالوحدانية والربوبية وأقول هو الله ربى .

(ولا أشرك بربى أحدا) فهو المعبود وحده لا شريك له .

وفى هذا تعريض بأن صاحبه لما عجّز الله عن البعث فقد جعله مساويا لخلقه فى هذا العجز ، وإذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم زاد فى عظة صاحبه فقال له :

(ولولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله لاقوة إلا بالله) أى هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ــ حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك ، وقلت : الأمر ما شاء الله ، والكائن ما قدره الله ، ليكون ذلك منك اعترافا بالعجز ، وبأن كل خير بمشيئة الله وفضله ، وهلا قلت : لاقوة إلا بالله ، إقرارا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها فهو بمعونة الله وتأييده .

وبعد أن نصح الكافرَ بالإيمان وأبان له عظيم قدرة الله وكبير سلطانه ــ أجابه عن افتخاره بالمال والنفس ورد على قوله : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا فقال :

(إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا ، فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا) أى إن ترنى أيها الرجل أفقر منك فإنى أرجو الله أن يقلب الآية ويجعل مابى بك ويرزقنى الغنى ويرزقنى لإيمانى جنة خيرا من جنتك ، ويسلبك بكفرك نعمته ويخرب جنتك بأن يرسل عليها مطرا من السماء يقلع زروعها وأشجارها ، أو يجعل ماءها يغور فى الأرض ، فلن تطيق أن تدركه بعد غوره بطلبك إياه .

وخلاصة ذلك — إن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر إما بآفة سماوية أو بآفة أرضية وهى غور مائها ، وكلتاهما تتلف الشجر والزرع والكرم .

ثم أخبر سبحانه بأنه قد حقق ما قدره هذا المؤمن فقال :

(وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا) أى وأحاطت الجوائح بثمار جنته التى كان يقول فيها : ما أظن أن تبيد هذه أبدا ـ فأصبح يقلب كفيه ندما وأسفا على ضياع نفقته التى أنفقها فى عمارتها حين رآها ساقطة على عروشها ، ويتمنى أن لم يكن قد أشرك بربه أحدا .

والخلاصة — إنه لما أنفق عمره فى تحصيل الدنيا وأعرض عن الدين ، ثم ضاعت منه الدنيا حرم الدين والدنيا معا ، ومن ثم عظمت حسرته وقال : ليتنى لم أشرك بربى أحدا .

(ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا) أى ولم تكن له عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ينصرونه ويقدرون على دفع الجوائح عنه أو رد المهلك له ، من دون الله ، فإن الله هو الذى يقدر وحده على نصره ، وما كان منتصرا بقوته عن انتقام الله منه بإهلاك جنته .

وخلاصته — إنه لايقدر على نصره إلا الله ولا ينصره غيره من عشيرة وولد وخدم وحشم وأعوان ، كما لا يقدر أن ينتصر لنفسه .

ثم أكد الجملة السالفة وقرر المراد منها بقوله :

(هنالك الولاية لله الحق) أى فى مثل هذه الشدائد والمحن ـ النصرة لله وحده لايقدر عليها غيره .

(هو خير ثوابا وخير عقبا) أى هو خير جزاء وخير عاقبة لأوليائه ، فينتقم لهم منهم ، ويفوض أمرهم إليهم .

وبعد أن ضرب المثل لدنيا هؤلاء الكافرين التى أبطرتهم وكانت سبب

شقائهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا - ضرب مثلا لدار الدنيا عامة فى سرعة فنائها وعدم دوام نعيمها فقال :

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) .

شرح المفردات

المثل الصفة ، وهشيما : أى يابسا متفتتا ، تذروه ، أى تنثره وتفرقه، ومقتدرا: أى كامل القدرة ، والباقيات الصالحات:هى الأعمال الصالحة كلها ، وثوابا : أى جزاء .

المعنى الجملى

أخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « استكثروا من الباقيات الصالحات ، قيل وما هى يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله هن الباقيات الصالحات ، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها ، وهن من كنوز الجنة » .

وأخرج النسائى والطبرانى والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا « خذوا جُنَّتكم ، قيل يا رسول الله من أى عدو قد حضر ، قال بل جنتكم من النار قول سبحان الله

والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات ، وهن الباقيات الصالحات » .

الايضاح

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح) شبهت الدنيا فى نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال نبات اخضرّ والتف وأزهر ، ثم صار هشيما متفتتا تنثره الرياح ذات اليمين وذات الشمال ، ومن ثم لا يغترّنّ أهلها بها ولا يفخرنّ ذو الأموال الكثيرة بأمواله ، ولا يستكبرنّ بها على غيره ، فإنما هى ظل زائل ، وفى الحديث : « الدنيا كسوق قام ثم انفض » .

(وكان الله على كل شىء مقتدرا) أى وكان الله ذو الكمال والجلال قادرا على كل شىء إنشاء و إفناء و إعادة ، فهو يوجد الأشياء ثم ينميها ثم يفنيها ، وما حال الدنيا إلا هذه الحال ، فهى تظهر أولا ناضرة زاهرة ثم تتزايد قليلا قليلا ، ثم تأخذ فى الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك والفناء ، فلا ينبغى للعاقل أن يبتهج بما يحوزه منها أو يفخر به أو يصعر خده استكبارا .

ثم بين سبحانه ما كانوا يفتخرون به من محسنات الدنيا إثر بيان حالها بما مرّ من المثل فقال :

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا) أى إن الأموال والبنين التى يفخر بها عيينة والأقرع وأضرابهم هى من زينة هذه الحياة ، وليسا من زاد الآخرة ، وقد علمت أن الدنيا سريعة الفناء ، فلا ينبغى التفاخر بها .

وقدم المال على البنين مع كونهم أعز منه لدى جميع الناس — من قِبَل أن الزينة به أتم ، ولأنه يمد الآباء والأبناء فى كل حين ، ولأنه مناط بقاء النفس والأولاد وبذا يبقى النوع الإنسانى، ولأن الحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم ، ولأنه زينة بدونهم ، دون العكس ، فإن من له بنون ولا مال له فهو فى بؤس وشقاء .

روى عن على كرم الله وجهه : المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام .

ثم بين ما ينبغى التفاخر به فقال .

(والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) أى وأعمال الخير التى تبقى ثمرتها للانسان وهى أفعال الطاعات كالصلاة والصدقات والجهاد فى سبيل الله ومساعدة البائسين وذوى الحاجات ـ خير عند ربك من المال والبنين جزاء ، وخير أملا ، إذ ينال بها صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله فى الدنيا .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) .

شرح المفردات

بارزة: أى ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شىء من العمائر ولا من الجبال والأشجار ، وحشرناهم : أى سقناهم إلى الموقف من كل أوب ، فلم نغادر : أى لم نترك يقال غادره وأغدره إذا تركه ، ومنه الغدر وهو ترك الوفاء ، وعرضوا: أى أحضروا لفصل القضاء ، صفا: أى مصطفين ، موعدا: أى وقتا ننجز فيه ما وعدنا من البعث وما يتبعه، ووضع الكتاب : أى جعل كتاب كل عامل فى يد صاحبه حين الحساب ، مشفقين : أى خائفين ، والويل : الهلاك ، وياويلتنا : أى ياهلاك أقبل فهذا أوانك ، أحصاها : أى

عدّها ، حاضرا ، أي مسطورا فى كتاب كل منهم ، ولا يظلم ربك : أى لا يتجاوز ماحده من الثواب والعقاب .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن الدنيا ظل زائل ، وأنه لاينبغى أن يغتر أحد بزخرفها ونعيمها ، بل يجب أن يكون موضع التفاخر العمل الصالح الذى فيه رضا الله وانتظار مثوبته فى جنات تجرى من تحتها الأنهار - أردف ذلك بذكر أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من أخطار وأهوال ، وأنه لاينجى منها إلا اتباع ما أمر به الدين وترك ما نهى عنه مما جاء على لسان الأنبياء والمرسلين ، لا الأموال التى يفتخر بها المشركون على المؤمنين .

الإيضاح

ثم ذكر سبحانه من أحوال يوم القيامة أمورا :

(١) (ويوم نسير الجبال) أى واذكر أيها الرسول يوم نقلع الجبال من أماكنها ونسيرها فى الجو كالسحاب ونجعلها هباء منثورا كما قال : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» أى تذهب الجبال وتتساوى المهاد وتبقى الأرض سطحا مستويا لاعوج فيه ولا وادى ولا جبل ، وقال : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » وقال : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » .

(٢) (وترى الأرض بارزة) أى وترى أيها الرائى جميع جوانب الأرض بادية ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شىء من العمائر ولا شىء من الجبال ولا شىء من الأشجار، فليس عليها ما يسترها ، فيكون جميع الخلق ضاحين لربهم لاتخفى عليه خافية من أمرهم ، وهذا هو المراد من قوله : لاترى فيها عوجا ولا أمتا .

(٣) (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) أى وجمعنا الأولين والآخرين للحساب بعد أن أقمناهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحدا لاصغيرا ولا كبيرا كما قال : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » وقال : « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الناس حفاة عراة غُرْلا (الغرلة القلفة) فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » زاد النسائى فى رواية « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

ولما ذكر سبحانه حشر الخلق بين كيفية عرضهم على ربهم فقال :

(٤) (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أى يعرض الخلق كلهم على الله صفا واحدا كما قال : « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » ويقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا أيها الناس أحياء كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة فرادى حفاة عراة لاشىء معكم من المال والولد ، ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » .

وفى هـذا زجر لأولئك المشركين المنكرين للبعث الذين يفخرون فى الدنيا على الفقراء من المؤمنين بالأموال والأنصار .

أخرج ابن المنذر عن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله تعالى ينادى يوم القيامة: ياعبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ، أحضروا حجتكم ، ويسروا جوابكم ، فإنكم مسئولون محاسبون ، يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب» .

وفى الحديث الصحيح « يجمع الله تعالى الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا يسمعهم الداعى وينفذهم البصر » والحديث له بقية .

(بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) أى ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا هو كائن ، وكنتم مع الافتخار على المؤمنين بالأموال تنكرونه ، فالآن قد استبان لكم أنه حق ، وأنه لا مال ولا ولد بين أيديكم .

(٥) (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) أى ووضع كتاب الأعمال الذى فيه الجليل والحقير فى يد صاحب اليمين والشمال ، فترى المجرمين جميعا نادمين على ما فيه من قبائح أعمالهم وسىء أفعالهم وأقوالهم وظهور ذلك لأهل الموقف ، خائفين من عقاب الحق ، والفضيحة عند الخلق .

(ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؟) أى ويقولون حين وقوفهم على ما فى تضاعيفه : يا حسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله ، ما لهذا الكتاب لا يترك هنة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعدّها ؟ فهو محيط بجميع ما كسبته يد الإنسان .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » وقوله : « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » وما مثل النفس إلا مثل الزجاجة التى يضعها المصور فى صندوق آلة التصوير ، فكل صورة تقع عليها تلتقطها وتحفظها من ضار ونافع ، فإذا كشف الغطاء أبصرنا كل ما عملنا ورأينا صوره كما هى من حسن وسىء ، وفضيلة ورذيلة ، فتفعل فى عقولنا فعلها دون كلام ولا كتابة ، وكل امرئ يراها يقرؤها والناس فيها سواء .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ووجدوا ما عملوا حاضرا) مثبتا فى كتابهم ، خيرا كان أو شرا كما قال : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا » الآية . وقال : « يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » .

(ولا يظلم ربك أحدا) من خلقه ، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب

من يشاء بحكمته وعدله ، فإنه سبحانه وعد بإثابة المطيع وتعذيب العاصى بمقدار جرمه من غير زيادة ، وإنه قد يغفر له ما سوى الكفر ، ومن ثم لا يعذب أحدا بما لم يعمله ولا ينقص ثواب ما عمله مما أمر به وارتضاه ، ولا يزيد فى عقابه الملائم لعمله الذى نهى عنه ولم يرتضه .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً » وقوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » .

وخلاصة ذلك — إن الجزاء نتيجة العمل ، والعمل مرسوم فى قوالب حافظة له فليس يمكن رفعه ولا دفعه ، ولا يكون الجزاء عليه ظلما ، كما لا تعد التخمة بعد الأكل الكثير ظلما ، ولا المرض بعد الشرب من الماء الآسن المملوء بالجراثيم والأدران ظلما ، وإنما تلك مسببات لأسباب كل عاقل يعلم أنها نتيجة حتمية لها .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) .

شرح المفردات

فسق : خرج ؛ يقال فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، أفتتخذونه ، الهمزة في مثل هذا تفيد الإنكار والتعجب ممن يفعل مثل ذلك ، والذرية : الأولاد وبذلك قال جمع من العلماء ، منهم الضحاك والأعمش والشعبي ، وقيل المراد بهم الأتباع من الشياطين ، والعدو يطلق على الواحد والكثير كما قال : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ » وقال : « هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ » والعضد : أصله ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعمل بمعنى المعين كاليد ونحوها وهو المراد هنا ، فدعوهم : أى فاستغاثوا بهم ، فلم يستجيبوا لهم : أى فلم يغيثوهم ، والموبق : مكان الوبوق : أى الهلاك وهو النار ؛ يقال وبق وبوقا كوثب وثوبا : إذا هلك ، مواقعوها : أى داخلوها وواقعون فيها ، ومصرفا : أى مكانا ينصرفون إليه .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه رده على أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بأموالهم وأعوانهم وقالوا كيف نجلس مع هؤلاء ونحن من أنساب شريفة وهم من أنساب وضيعة ، ونحن أغنياء وهم فقراء ؟ - قفى على ذلك بذكر عصيان إبليس لأمره تعالى بالسجود لآدم ، لأن الذى حداه إلى ذلك هو كبره وافتخاره عليه بأصله ونسبه إذ قال « خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » ، فأنا أشرف منه أصلا ونسبا فكيف أسجد له ؟ تنبيها إلى أن هذه الطريقة السالفة هى بعينها طريقة إبليس ، ثم حذر سبحانه منها فى قوله : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدوّ) .

وقد تكرر ذكر هذه القصة فى مواضع من الكتاب الكريم ، وهى فى كل موضع سيقت لفائدة غير ما جاءت له فى المواضع الأخرى ، على اختلاف أساليبها وعباراتها ، ولا غرو فهى من نسج العليم الخبير .

الإيضاح

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) تقدم أن قلنا فى سورة البقرة : إن الملائكة عالم من العوالم الغيبية لانعرف حقيقتهم ، والقرآن الكريم يرشد إلى أنهم أصناف ، لكل صنف عمل ، وقد جاء على لسان الشرع إسناد إلهام الحق والخير إليهم ، كما يستفاد من خطابهم لمريم عليها السلام ، و إسناد الوسوسة إلى الشياطين كما ورد فى الحديث « إن للشيطان لَمّة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » .

فالملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس على وجه لا نعرف حقيقته، بل نؤمن به كما ورد ولا نزيد عليه شيئا . وكلنا نشعر بأنا إذا هممنا بأمر فيه وجه للحق أو الخير ، ووجه للباطل أو الشر - بأن فى نفوسنا تنازعا وكأن هاجسا يقول افعل ، وآخر يقول : لاتفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين على الآخر ، فهذا الذى أودع فى النفوس ونسميه قوة وفكرا - لايبعد أن نسميه ملكا إن كان يميل إلى الخير ، وشيطانا إن كان يميل إلى الشر ، والسجود : الخضوع والانقياد ، وكان تحية للملوك عند بعض القدماء كما جاء من سجود يعقوب وأولاده ليوسف ، والسجود قسمان : سجود العقلاء تعبدا على الوجه المخصوص ، وسجود سائر المخلوقات لمقتضى إرادته تعالى كما قال « وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » .

والمعنى — واذكر أيها الرسول لقومك وقت قولنا للملائكة : اسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام اعترافا بفضله ، واعتذارا عما قالوه فى شأنه من نحو قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » فسجدوا كلهم أجمعون امتثالا إلا إبليس أبى واستكبر .

ثم بين السبب فى عصيانه ومخالفته للأمر فقال :

(كان من الجن) أى إن الذى منعه من السجود أنه كان جنيا واحدا بين أظهر الألوف من الملائكة مغمورا بينهم متصفا بصفاتهم ، بدليل أنه قال : «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » ولأنه تعالى أثبت له فى هذه الآية ذرية ونسلا والملائكة لاينسلون ، ولأن الملائكة لايستكبرون وهو قد استكبر .

ويرى قوم أنه كان من الملائكة بدليل أن خطاب السجود كان معهم ، ولأن وصف الملائكة بأنهم لايعصون الله ما أمرهم دليل على أنه يتصور منهم العصيان ، ولولا ذلك ما مدحوا به ، لكن طاعتهم طبع ، وعصيانهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ، ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولأنه تعالى ذكر من هاروت وماروت ما ذكر وهما ملكان .

على أنه لادليل على أن هناك فروقا جوهرية بين الملائكة والجن بها يمتاز أحدهما من الآخر ، بل هى فروق فى الصفات فحسب ، والجميع من عالم الغيب لانعلم حقيقتهم ولا نضيف إليها شيئا إلا إذا ورد به نص عن المعصوم .

(ففسق عن أمر ربه) أى فصار فاسقا كافرا بسبب أمر الله للملائكة المعدود هو فى عدادهم ، إذ لولا الأمر ما تحقق إباء .

وفى الآية إيماء إلى أن فسقه قد نتج عن كونه من الجن ، إذ أن من شأنهم التمرد والعصيان لكدورة مادتهم ، وخباثة ذاتهم (وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) وإن كان منهم من أطاع وآمن .

ثم حذر سبحانه من اتباعه بعد أن استبان من حاله ما استبان فقال :

(أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ؟) أى وبعد العلم بما صدر منه من القبائح لاينبغى لكم أن تتخذوه وأولاده وأعوانه أولياء لكم من دونى تطيعونهم بدل طاعتى وهم لكم أعداء .

وجملة المعنى — كيف تصنعون هذا الصنيع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم

بجميع ما أنتم فيه من النعم ، من لم يكن لكم منه منفعة قط بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم فى كل حين .

(بئس للظالمين بدلا) أى بئس البدل للكافرين باتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله ، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم ، المتفضل عليهم بما لا يحصى من الفواضل .

ثم بين السبب فى عدم استحقاق إبليس وذريته هذه الولاية فى أنفسهم بعد بيان خباثة أصلهم فقال :

(ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) أى ما أحضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، فكيف تطيعونهم وتعبدون الأصنام من دونى وهم عبيد أمثالكم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

وقصارى ذلك — ما أطلعتهم على أسرار التكوين ، وما خصصتهم بخصائص لا تكون لسواهم ، حتى يقتدى الناس بهم ، فأنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ليس لى فى ذلك شريك ولا وزير .

(وما كنت متخذ المضلين عضدا) أى وما كنت متخذ من لا يهدون إلى الحق أعوانا وأنصارا ، لأنهم يضلون فتبعهم يجور عن قصد السبيل ولا يصل إلى هدى ، فكيف اتبعوهم وعبدوا الأصنام على مقتضى وسوستهم ؟ .

ثم أخبر سبحانه عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رءوس الأشهاد تقريعا لهم وتوبيخا فقال :

(ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) أى واذكر أيها الرسول يوم الجمع حين يقول الله تعالى للكافرين على سبيل التأنيب والزجر: نادوا للشفاعة لكم من زعمتم فى الدنيا أنهم شركائى ، لينقذوكم مما أنتم فيه ، والمراد بهم كل ما عبد من دون الله ، فدعوهم ليستغيثوا بهم ، ويشفعوا لهم ، فلم يغيثوهم .

ونحو الآية قوله : « وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » وقوله « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ » وقوله « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

(وجعلنا بينهم موبقا) أى وجعلنا بين المشركين وما كانوا يدعون من دون الله شركاء فى الدنيا ـ موضعا للهلاك وهو النار حسما لأطماعهم أن يصل إليهم من دعوه للشفاعة .

(ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) أى وعاين المشركون النار يومئذ فعلموا أنهم داخلوها ولم يجدوا بدّا من الوقوع فيها ، لأن الله قد حتم عليهم ذلك ، فلا معدل لهم عنها ، ولا مكان لهم ينصرفون إليه ويزايلونها ، إذ قد أحاطت بهم من كل جانب .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ

لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩) .

شرح المفردات

صرفنا : أى رددنا وكررنا ، والمثل : الصفة الغريبة ، والجدل : المنازعة بالقول ؛ ويراد به هنا المماراة والخصومة بالباطل ، وسنة الأولين: الإهلاك بعذاب الاستئصال، والقبل (بضمتين) الأنواع والألوان واحدها قبيل، ليدحضوا به الحق : أى ليبطلوه ويزيلوه من قولهم دحضت رجله أى زلقت ودحضت حجته بطلت ، وما أنذروا : أى ماخوفوه من أنواع العقاب ، ونسى ماقدمت يداه، أى لم يتدبر عواقبه ، أكنة : أى أغطية واحدها كنان ، أن يفقهوه : أى أن يفهموه ، وقرا : أى ثقلا فى السمع ، الموعد : يوم القيامة ، موئلا:أى ملجأ؛ يقال وأل فلان إلى كذا وألا ووءولا: إذا لجأ إليه ، القرى : أى قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباههم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر شبهات المبطلين ورد عليها بأدلة لا تدحض ، وبرهانات لا ترد — قفى على ذلك ببيان أن فى القرآن من الأمثال ما فيه مقنع لمن تذكر وتدبر وألقى السمع وهو شهيد ، لكنها القلوب قد تحجرت ، والأفئدة قد قست ، فلا تنفع فيها الذكرى ، ولا تستجيب لوعظ الواعظ ، ونصيحة المذكر ، ولو آخذهم ربهم بما كسبوا لأرسل عليهم العذاب معجلا ، ولم يبق منهم على ظهر الأرض أحدا ، ولكنه الغفور ذو الرحمة ، فجعل لهلاكهم موعدا لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويرعوون عن غيهم .

أخرج الشيخان وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على كرم الله وجهه « أن النبى

صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال (ألا تصلّيان) فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلىّ شيئا ، ثم سمعته وهو مولّ يضرب فخذه ويقول «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً» .

الإيضاح

(ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى ولقد وضحنا للناس كل ما هم فى حاجة إليه من أمور دينهم ودنياهم ، ليتذكروا فينيبوا ويعتبروا ويزدجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لكنهم لم يقبلوا ذلك ولم يرعووا عن غيهم وعنادهم واستكبارهم وعتوهم .

ثم بين سبب هذا العتوّ وتلك المماراة فقال :

(وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) أى وكان الإنسان بمقتضى جبلته أكثر شىء مراء وخصومة لا ينيب لحق ، ولا يزدجر لموعظة ، والمراد بذلك خصومة الأمم لأنبيائهم وردهم عليهم ما جاءوا به كما حكى الله عنهم من قولهم « إِنْ هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ » وقولهم « يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ » وشديد تعنتهم كما حكى عنهم بنحو قولهم « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

وخلاصة ذلك — إن جدل الإنسان أكثر من جدل كل مجادل لما أوتيه من سعة الحيلة وقوة المعارضة واختلاف النزعات والأهواء وقوة العزيمة إلى غير حد ؛ فلو اتجه إلى سبل الخير وتاقت نفسه إلى سلوك طريقه ارتقى إلى حظيرة الملائكة ، ولو نزعت نفسه إلى اتباع وساوس الشيطان انحط إلى الدرك الأسفل ولحق بأنواع الحيوان ، يفعل مايشاء غير مقيد بوازع من الدين ولا زمام من العقل وصادق العزيمة .

ولما بين سبحانه وتعالى إعراضهم ذكر علة ذلك فقال :

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا) أى وما منع هؤلاء المشركين من أن يؤمنوا بالله حين جاءتهم البينات الواضحة والدلالات الظاهرة وعلموا صحة ما تدعوهم إليه ، وأن يستغفروا ربهم بالتوبة عما فرط منهم من الذنوب - إلا تعنتهم وعنادهم الذى جعلهم يطلبون أحد أمرين :

(١) إما عذاب الاستئصال بنحو قولهم « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

(٢) وإما أن تأتيهم بأنواع من العذاب والبلاء يتلو بعضها بعضا حين وجودهم فى الدنيا كقولهم « يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » وقولهم « ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصادِقِينَ » .

ولما كان مجىء ذلك بيدالله وأمره مفوض إليه لا إلى الرسول نبه إلى ذلك بقوله:

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أى وما نرسل رسلنا إلا ليبشروا أهل الإيمان والتصديق بالله ورسله بجزيل ثوابه فى الآخرة ، وينذروا أهل الكفر به وتكذيب رسله بعظيم عقابه وأليم عذابه ، ولم نرسلهم ليقترح عليهم الظالمون من أممهم الآيات بعد ظهور المعجزات ، ويطلبوا منهم مالاقبل لهم به .

ثم ذكر أن من شأن المشركين كثرة الجدل للرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

(ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق) أى ويجادل أولئك المشركون بالباطل كقولهم للنبي صلى الله عليه وسلم: أخبرنا عن فتية ذهبوا أول الدهر ماشأنهم ؟ وعن الرجل الذى بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الروح ، وما أشبه ذلك مما يقصد منه التعنت وإزالة الحق الذى جاء به الرسل عليهم ، لا كشف حقيقة تفيد فى دين أو دنيا .

وخلاصة ذلك — إن الرسل ما أرسلوا للجدل والشغب بالباطل ، بل بعثوا للبشارة والإنذار ، وأنتم تجادلون بالباطل لتدحضوا الحق الذى جاءكم به رسولى .

(واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا) أى اتخذوا الحجج التى احتج بها عليهم ، وكتابه الذى أنزله إليهم ، والنذر التى أنذرهم بها العقاب والعذاب — استهزاء وسخرية كقولهم : « إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » وقولهم . « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا » .

ولما حكى عنهم خبيث أحوالهم وصفهم بما يوجب الخزى والنكال فقال :

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ؟) أى لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات الله ، ودلّ بها على سبيل الرشاد ، وهدى بها إلى طريق النجاة ، فأعرض عنها ولم يتدبرها ولم يتعظ بها ، ونسى ما عمله من الكفر والمعاصى أى لم يتفكر فى عواقبه ، ومن ثم لم يتب منها ولم ينب إلى ربه .

ثم علل ذلك الإعراض والنسيان بقوله :

(إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) أى إن ذلك الإعراض منهم بسبب أن جعلنا على قلوبهم أغطية كراهة أن يفقهوا ما ذكّروا به ، وجعلنا فى آذانهم ثقلا لئلا يسمعوه ، والمراد أنه لا يدع شيئا من الخير يصل إليها ، فهى لا تعى شيئا من الآيات إذا تليت عليها .

ذاك أنهم فقدوا الاستعداد لقبول الرشاد بما دنسوا به أنفسهم من قبيح الأفعال والأقوال ، وبما اجترحوا من الكفر والفسوق والعصيان ، فأصبح بينهم وبين سماع الحق حجاب غليظ ، فلا ينفذ إلى السمع شىء مما يسمع سماع تدبر واتعاظ ، ولا إلى القلب شىء مما يقال فيعيه وينتفع به كما قال: « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » وقال : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

وقد تكرر هذا المعنى فى غير موضع من الكتاب الكريم : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

ثم ذكر سبحانه أثر هذا الختم على القلوب فقال :

(وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) أى ومهما كررت أيها الرسول من الدعوة إلى الحق حرصا منك على نجاتهم وخشية نزول البلاء بهم ، فلن يستجيبوا لك ، ولن يهتدوا بهديك ، لأن الله قد كتب عليهم الضلال ، بسوء أعمالهم وقبح طواياهم ، فأنى يفيد النصح ، وتجدى العظة ، ويرق القلب ؟

وخلاصة المعنى — كأنه صلى الله عليه وسلم حرصا منه على هداهم قال : مالى لا أدعوهم رجاء أن تتكشف تلك الأكنة ، وتمزق بيد الدعوة ، فقيل له — وأنى لك ذلك ؟ فإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا أبدا .

وقد جاءت هذه الآية فى قوم علم الله أنهم سيموتون على الكفر من مشركى مكة .

ثم بين أنه سبحانه لا يعجل العقوبة لعباده على مايجترحون من الفسوق والآثام رجاء أن ينيبوا إليه فقال :

(وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) أى وربك أيها الرسول غفور لذنوب عباده ، ذو رحمة واسعة بهم ، إذا هم أنابوا إليه ورجعوا إلى رحاب عفوه وجوده وكرمه ، فيرحمهم واسع الرحمات ، ويتجاوز لهم عن عظيم الخطيئات ، ولو شاء أن يؤاخذهم بما اجترحوا من المعاصى كإعراضهم عن آياته ، ومناصبتهم العداء لرسله ، ومجادلاتهم بالباطل — لعجل لهم العذاب فى الدنيا وأنزل بهم عذاب الاستئصال جزاء وفاقا لقبيح أعمالهم .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » وقوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » إلى نحو ذلك من الآيات الكثيرة فى هذا الباب .

ثم أبان أن هذا إمهال لا إهمال فقال :

(بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) أى بل لهم موعد ليس لهم منه محيص ولا ملجأ يلجئون إليه من عذابه .

ثم ذكر ماهو كالدليل على ما سلف فقال :

(وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) أى وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكناهم لما ظلموا فكفروا بآياتنا ، وجعلنا لهلاكهم ميقاتا وأجلا حين بلغوه جاءهم عذابنا فأهلكناهم به ، وهكذا جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك الذين لايؤمنون بك موعدا لهلاكهم إذا جاء أهلكناهم كما هى سنتنا فى الذين خلوا من قبلهم من أضرابهم من سالفى الأمم .

قصة موسى والخضر

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَأَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْأَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ؟ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨)

قَالَ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْأَلْنِى عَنْ شَىْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ، قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ، قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا .

مقدمات تشرح هذا القصص

(١) مَن موسى ؟

أكثر العلماء على أن موسى الذى ذكر فى هذه الآية هو موسى بن عمران نبىّ بنى إسرائيل صاحب المعجزات الظاهرة المعروفة والشريعة ، ولهم على ذلك أدلة :

(ا) إنه ما ذكر الله موسى فى كتابه إلا أراد صاحب التوراة ، فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه ، ولو كان شخصا آخر سمى بهذا الاسم لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وتزيل الشبهة .

(ب) ما أخرجه البخارى ومسلم فى جماعة آخرين عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضى الله عنهما : إن نَوفا البكالى بن فُضالة ابن امرأة كعب من أصحاب أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بنى إسرائيل ، فقال كذب عدو الله .

وذهب أهل الكتاب وتبعهم بعض المحدّثين والمؤرخين أن موسى هنا هوموسى ابن ميشى بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران ولهم على ذلك أدلة :

(ا) إن موسى بعد أن أنزلت عليه التوراة وكلمه الله بلا واسطة، وحج خصمه بالمعجزات العظيمة التى لم يتفق مثلها لأكثر الأنبياء - يبعد أن يبعثه الله بعد ذلك ليستفيد علما من غيره - ورد هذا بأنه لايبعد بأن العالم الكامل فى أكثر العلوم يجهل بعضُ أشياء، فيحتاج فى تعلمها إلى من دونه، وهذا مشاهد معلوم.

(ب) إن موسى عليه السلام بعد خروجه من مصر وذهابه إلى التيه توفى ولم يخرج قومه منه إلا بعد وفاته، ولو كانت هذه القصة معه لاقتضت خروجه من التيه، لأنها لم تكن وهو فى مصر بالاتفاق.

(حـ) إنها لو كانت معه لاقتضت غيبته أياما، ولو كان كذلك لعلمها الكثير من بنى إسرائيل الذين كانوا معه ونقلت لتوافر الدواعى على نقلها، ولم يكن شىء من ذلك، فإذاً لم تكن معه - ورد هذا بأنه قد يكون موسى عليه السلام خرج وغاب أياما، لكن لم يعلموا أنه ذهب لهذا الغرض، بل ذهب ليناجى ربه، ولم يقفهم على حقيقة غيبته بعد أن رجع، لعله بقصور فهمهم، فخاف من حط قدره عندهم، فأوصى فتاه بكتمان ذلك.

وعلى الجملة فإنكارهم لايؤبه به، وهو جائز عقلا وقد أخبر به الله ورسوله.

(٢) مَن فتاه ؟

فتى موسى — هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام، وقد كان يخدمه ويتعلم منه، والعرب تسمى الخادم فتى، لأن الخدم أكثر ما يكونون فى سن الفتوة، كما يطلقون على العبد فتى، وفى الحديث الصحيح «ليقل أحدكم فتاى وفتاتى، ولا يقل عبدى وأمتى» وهذا من محاسن الآداب الشرعية.

(٣) مَن الخضر ؟

الخضر (بفتح الخاء وكسرها وكسر الضاد وسكونها) لقب لصاحب موسى، واسمه بَلْيا (بفتح الباء وسكون اللام) بن ملكان، والأكثرون على أنه كان نبيا، ولهم على ذلك أدلة :

(ا) قوله : « وَآتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا » والرحمة : النبوة بدليل قوله : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » .

(ب) قوله : « وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً » وهذا يقتضى أنه علمه بلا واسطة معلم ولا إرشاد مرشد ، وكل من كان كذلك كان نبيا .

(حـ) إنه قال له موسى : « هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ » والنبى لايتعلم من غير النبى .

(د) إنه قال : « وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى » أى بل قد فعلته بوحى من الله ، وهذا دليل النبوة .

(٤) أين كان مجمع البحرين ؟

مجمع البحرين — هو المكان الذى يجتمع فيه البحران ويصيران بحرا واحدا ، وفيه رأيان :

(ا) إنه ملتقى بحرى فارس والروم (ملتقى المحيط الهندى والبحر الأحمر عند باب المندب) .

(ب) إنه ملتقى بحر الروم والمحيط الأطلنطى عند طنجة قاله محمد بن كعب القرظى (البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى عند مضيق جبل طارق أمام طنجة) .

وسيأتى رأى آخر للبقاعى .

وليس فى الكتاب الكريم ما يدل على تعيين هذين البحرين ، فإن جاء فى الخبر الصحيح شىء فذاك ، وإلا فيجمل السكوت عنه .

شرح المفردات

لا أبرح : أى لا أزال سائرا ، والحقب (بضمتين وبضم فسكون) الدهر ، وقيل ثمانون سنة ، وعن الحسن سبعون ، مجمع بينهما : أى مكان اجتماعهما ، سربا :

أى مسلكا كالسرب : وهو النفق فصار الماء عليه كالقنطرة ، والغداء : الطعام الذى يؤكل أول النهار والمراد به هنا الحوت ، نصبا : أى تعبا وإعياء ، أوينا : أى التجأنا نبغى . نطلب ، ارتد : رجع ، على آثارهما : أى على طريقهما الذى جاءا منه ، قصصا : أى اتباعا من قولهم أثره إذا اتبعه ، رحمة : هى النبوة هنا ، الرشد (بضم فسكون و بفتحتين) إصابة الخير ، والإحاطة بالشىء : معرفته معرفة تامة ، والخبر : المعرفة ، وذكرا : أى بيانا ، إمرا : (بكسر الهمزة) أى منكرا : من أمر الأمر بمعنى كثر والعرب تصف الدواهى بالكثرة ، لاترهقنى : أى لاتحملنى ، والعسر : ضد اليسر وهو المشقة ، زكية : أى طاهرة من الذنوب ، بغير نفس : أى بغير حق قصاص لك عليها ، والنكر : المنكر الذى تنكره العقول وتنفر منه النفوس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأنصار ، وامتنعوا عن حضور مجالس النبى صلى الله عليه وسلم لئلا يشتركوا مع أولئك الصعاليك فى مجلس واحد ، ولئلا يؤذوهم بمناظرهم البشعة وروائحهم المستقذرة ـ قفى على ذلك بذكر قصص موسى عليه السلام مع الخضر ليبين بها أن موسى مع كونه نبيا صادقا أرسله الله إلى بنى إسرائيل بشيرا ونذيرا وهو كليم الله ـ أمر أن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه مالم يعلمه ، وفى ذلك دليل على أن التواضع خير من التكبر .

روى البخارى ما خلاصته — إن موسى عليه السلام قام فى بنى إسرائيل خطيبا ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال أنا ، فعتب عليه ربه ، إذ لم يردّ العلم إليه تعالى فأوحى إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، وأمره أن يأخذ حوتا فى مكتل ، فحيثما فقد الحوت فهو ثمة ، ففعل ذلك وسافر مع فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا صخرة فناما فاضطرب الحوت وسقط فى البحر ـ فاتخذ سبيله فى البحر

سربا - وصار الماء كالطاق عليه وهو يجرى ، فلما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، وانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، فلما كان الغد طلب موسى الغداء ووجد النصب ، ولم يكن ذلك إلا بعد أن جاوزا المكان الذى أمره الله به ، فقال فتاه : إنى نسيت الحوت ، وذكر ما كان من أمره عند الصخرة ، فارتدا على آثارهما قصصا ، حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلا مسجى بثوب أبيض ، وكان من أمرهما ماسترى من مسألة السفينة والغلام والجدار .

الإيضاح

(وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) أى واذكر أيها الرسول حين قال موسى بن عمران لفتاه يوشع : لا أزال أمشى حتى أبلغ مكان اجتماع البحرين أو أسير دهرا .

وسبب قوله هذا : أن الله أوحى إليه أن عبدا من عبادى بمجمع البحرين عنده من العلم مالم تحط به ، فأحب أن يرحل إليه .

وخلاصة ذلك — إن الله أعلم موسى حال هذا العالم وما أعلمه موضعه بعينه ، فقال لا أزل أمشى حتى يجتمع البحران فيصيرا بحرا واحدا أو أمضى دهرا طويلا حتى أجده .

ومجمل الأمر أنه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم فى السفر مهما طال به الزمان .

(فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا) أى فانطلقا يمشيان ، فلما بلغا مجمع بينهما وهو المكان الذى وعده الله بلقائه عنده - نسيا حوتهما فاتخذ الحوت طريقه فى البحر مسلكا وصار الماء كالقنطرة عليه ، فكان ذلك للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا .

ولا شك أن حياة الحوت بعد موته كانت لموسى معجزة ، وأما كون ماء البحر

صار كالقنطرة عليه أو كأى وضع آخر ، فليس بالواجب علينا أن نعتقده إلا إذا ثبت بالنص القاطع .

روى أن موسى عليه السلام أمر بحمل حوت مملوح معه وقيل له : متى فقدت الحوت فهو ثمة ، فأخذ حوتا وجعله فى مكتل (قفة) ثم انطلق ومعه فتاه حتى إذا أتيا الصخرة وكانت عند مجمع البحرين ناما واضطرب الحوت فى المكتل وخرج منه وسقط فى البحر .

روى البخارى ومسلم أن الله تعالى قال لموسى : خذ نونا (حوتا) ميتا فهو حيث ينفخ فيه الروح ، فأخذ ذلك فجعله فى مكتل ، وقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفت كثيرا ، فبينا هما فى ظل صخرة إذ تسرّب الحوت حتى دخل البحر وموسى نائم فقال فتاه : لا أوقظه ، حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : جعل الحوت لايمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة .

وحدث محمد بن إسحق عن الزهرى عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر حديث ذلك : « ما انجاب ماء منذ كان الناس غير مسير الحوت الذى فيه ، فانجاب كالكوة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه ، فقال ذلك ما كنا نبغ » .

(فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أى فلما جاوزا ذلك المكان المقصود من مجمع البحرين ، وسارا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغد وارتفع النهار أحس موسى بالجوع ، حينئذ قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا تعبا ونصبا من ذلك السفر .

وقد كان من الحكمة فى حصول الجوع والتعب له حين جاوز المكان أن يطلب الغداء فيذكر الحوت فيرجع إلى حيث يجتمع بمن يريد .

(قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا) أى قال له فتاه : أرأيت ما حدث لى حين التجأنا إلى الصخرة التى بمجمع البحرين ؟ إنى نسيت أن أخبرك بما حدث من الحوت ، إنه حىّ واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا . وذاك أن مسلكه كان كالطاق والسَّرَب ـ وما أنسانى ذكره إلا الشيطان .

(قال ذلك ما كنا نبغ) أى قال موسى : ذلك الذى ذكرت من أمر الحوت ما كنا نطلبه من حيث إنه أمارة للفوز بما هو المقصود بالذات .

(فارتدّا على آثارهما قصصا) أى فرجعا فى الطريق الذى جاءا فيه يتبعان أثرهما اتباعا حتى أتيا الصخرة .

قال البقاعى — إن هذا يدل على أن الأرض كانت رملا لا علامة فيها ، فالظاهر والله أعلم أنها مجمع النيل والملح عند دمياط أو رشيد من بلاد مصر ، ويؤيده نقر العصفور فى البحر الذى ركب فيه سفينته للتعدية كما ورد فى الحديث ، فإن الطير لا يشرب من الماء الملح اهـ .

وخلاصة ما تقدم — إنه تعالى بين لموسى عليه السلام أن موضع هذا العالم مجمع البحرين ، وأن علامة وجوده فى المكان المعين انقلاب الحوت الميت الذى فى المكتل حيا ، فلما بلغا مجمع بينهما اضطرب الحوت فيه ووثب فى الماء وقد أمسك الله إجراء الماء على البحر وجعله كالطاق أو الكوّة حتى سرى الحوت فيه ، فلما جاوز موسى وفتاه المكان المعين وهو الصخرة بسبب النسيان ، وسارا كثيرا وتعبا وجاعا قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال الفتى : أرأيت ما وقع لى من الحوت حين لجأنا إلى الصخرة فاتخذ سبيله فى البحر اتخاذا عجبا إذ انقلب من المكتل وصار حيا وألقى نفسه فى البحر على غفلة منى ، وإنى نسيت أن أبلغك خبره ، وما أنسانى ذكره إلا الشيطان ، قال موسى ذلك الذى كنا نطلبه،

لأنه أمارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر، فرجعا فى طريقهما الأولى إذ علما أنهما تجاوزا الموضع الذى يقيم فيه ذلك العالم .

(فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنّا علما . قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ؟) أى فوجد موسى وفتاه عند الصخرة حين رجعا إليها عبدا من عبادنا وهو الخضر مسجى بثوب أبيض ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلام ؟ فقال أنا موسى . قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم . قال هل أصحبك لتعلمنى مما علمك الله شيئا أسترشد به فى أمرى من علم نافع وعمل صالح ؟ .

(قال إنك لن تستطيع معى صبرا) ياموسى ، فإنى على علم من الله علمنيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من الله ، علمكه لا أعلمه .

ثم أكد ذلك مشيرا إلى علة عدم الاستطاعة فقال :

(وكيف تصبر على مالم تحط به خُبْرا ؟) أى وكيف تصبر وأنت نبى على ماأتولى من أمورٍ ظواهرُها منكرة وبواطنها مجهولة ، والرجل الصالح لايتمالك أن يصبر إذا رأى ذلك ، بل يبادر بالإنكار .

(قال ستجدنى إن شاء الله صابرا) معك غير منكر عليك .

(ولا أعصى لك أمرا) تأمرنى به غير مخالف لظاهر أمر الله .

(قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) أى قال له الخضر : إن سرت معى فلا تفاتحنى فى شىء أنكرتَه على حتى أبتدئ بذكره فأبين لك وجه صوابه ، فإنى لا أقدم على شىء إلا وهو صواب جائز فى نفس الأمر وإن كان ظاهره غير ذلك ، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم .

(فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها) أى فانطلقا يمشيان على الساحل يطلبان سفينة فوجداها فعرف أهلها الخضر من بينهم فحملوهم بغير أجر ، حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها حين توسطوا لُجّة البحر ، إذ أخذ الخضر فأسا فخرق لوحا من ألواح السفينة .

(قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ؟) أى قال موسى للخضر : لقد جئت عظيما منكرا ، ثم أخذ موسى ثوبه فحشا به الخرق .

(قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا) أى قال الخضر : ألم أقل لك يا موسى إنك لن تستطيع صبرا معى فيما ترى مما أفعل .

(قال لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) أى قال موسى للخضر لاتؤاخذنى بما غفلت عن التسليم لك وترك الإنكار عليك ، ولا تكلفنى مشقة ، ولا تضيق علىّ أمرى ، ولاتُعَسِّر على متابعتك ، بل يسرها بالإغضاء وترك المناقشة .

(فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) أى فانطلقا بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب ، يمشيان على الساحل فأبصر الخضر غلاما يلعب مع لداته وأترابه فقتله ، ولم يبين القرآن كيف قتله ، أحزّ رأسه أم ضرب رأسه بالجدار ، أم بطريق آخر ؟ وعلينا ألا نهتم بذلك إذ لو علم الله فيه خيرا لنا لذكره .

(قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟) أى قال موسى عليه السلام للخضر : أتقتل نفسا طاهرة من الذنوب بغير قتل نفس محرمة ؟ وخص هذا من بين مبيحات القتل كالكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان ، لأنه أقرب إلى الوقوع نظرا إلى حال الغلام .

(لقد جئت شيئا نكرا) أى لقد جئت شيئا تنكره العقول وتنفر منه النفوس .

وقد أتى هنا بقوله (نكرا) وهناك بقوله (إمرا) لأن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة ، لأن هذا لم يكن إهلاكا لنفس إذ ربما لا يحصل الغرق ، وفى هذا إتلاف النفس قطعا ، فكان أنكر .

وإلى هنا تم تفسير الجزء الخامس عشر فى الليلة السادسة عشرة من شعبان المعظم سنة ثلاث وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .